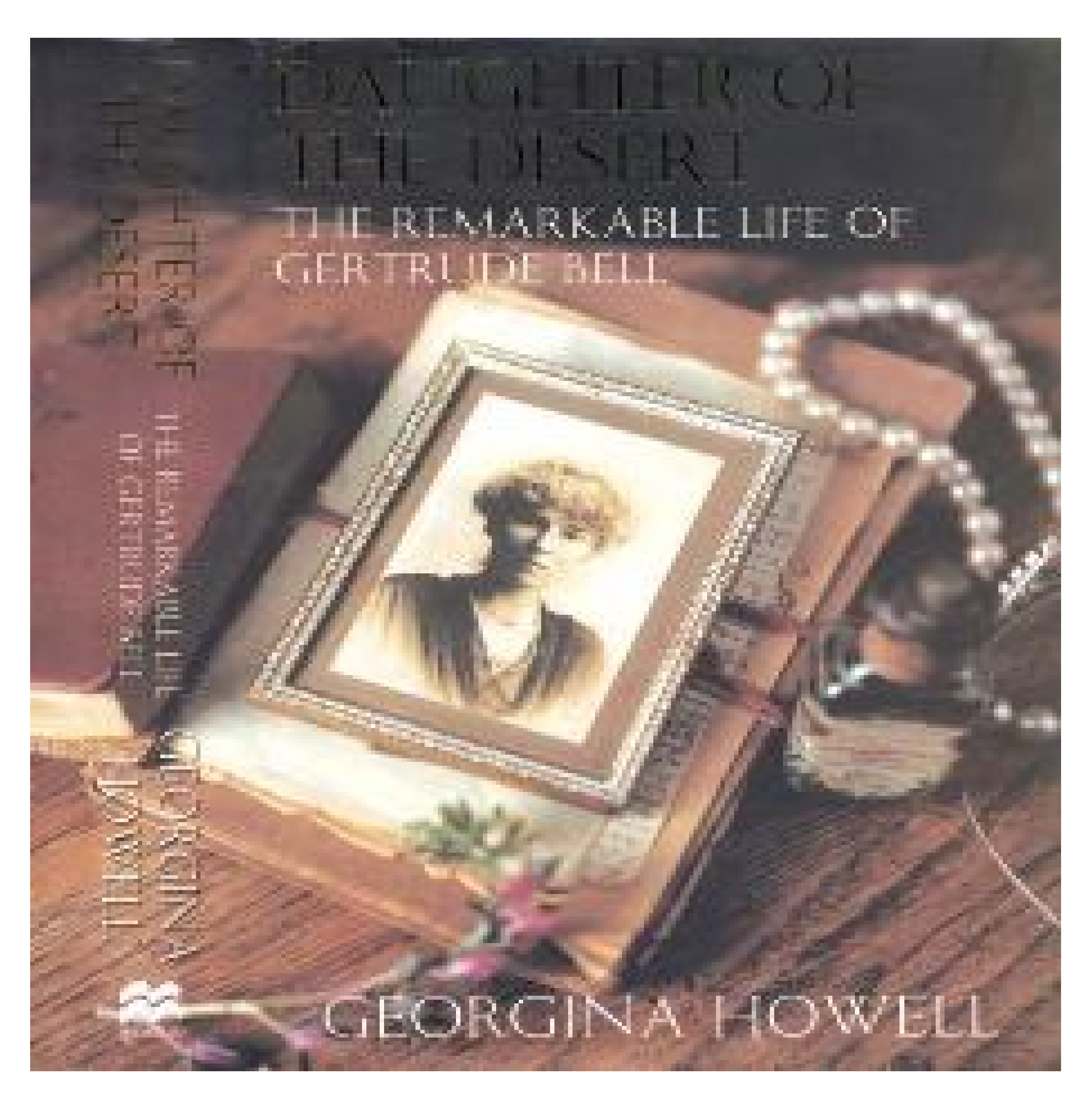


مس بيل ابنة الصحراء وعاشقة الشرق

تأليف: جورجينا هاويل
تعريب وإعداد: محمد حسن ومحمد أمين

نشر بشكل حلقات في جريدة القبس الكويتية

سايكس وصفها بأنها 'جوفاء' وامرأة كالرجل لا صدر لها
'مس بيل' أو'الخاتون' المهندس الرئيسي للعراق الحديث

يطلق عليها العديد من الناس في بلاد الرافدين لقب الخاتون، أي الليدي أو السيدة. غير أن غيرترود بيل المرأة الإنكليزية غير العادية التي يمكن أن يطلق عليها من دون مبالغة صفة المهندس الرئيسي للعراق الحديث، لم تكن مصدر اعجاب الجميع، فقد وصفها بغضب مارك سايكس المتخصص في الشؤون العربية، بأنها 'ضحلة، تكثر الحديث ومترفعة وجوفاء، وهي امرأة كالرجل ليس لديها صدر، تتنقل في جميع أرجاء العالم وهي تهز عجزها'.

في الواقع فقد تمكنت من خداعه حيث نظمت حملة اخذتها من القدس الى جبل الدروز الوعر، وقد خدعها هو ايضا في وقت لاحق بتوقيعه لاتفاقية سايكس - بيكو سيئة الصيت التي نكثت بالالتزام البريطاني القاضي بمنح أحبابها العرب حق تقرير المصير في أعقاب هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى.

كما أن عبدالعزيز آل سعود حاكم منطقة جنوب نجد ذا الشخصية الكاريزمية لم يؤخذ بسحرها، فقد كان يمازح اتباعه بتقليد اسلوبها في الحديث 'عبدالعزيز! عبدالعزيز! انظر الى هذا، وماذا ترى في ذلك؟!' إن انجازها في كسب ثقة الرجال من البدو أمر مثير للدهشة، فكما اشارت جورجينا هاويل مؤلفة الكتاب الذي تنشره 'القبس' على حلقات ابتداء من اليوم، فإن ابن سعود كان الزعيم القبلي الوحيد المهم الذي التقته بيل عندما دعي الى معرض للأسلحة البريطانية في البصرة عام 1916. وكانت في العادة تزور زعماء العشائر في مخيماتهم الصحراوية، حيث ظلت تكسب ودهم عن طريق اطرائها الروتيني لهم، والهدايا التي تقدمها لهم مثل المسدسات التي كانت دائما تحقق ما ترجوه، وكذلك بمعرفتها الجيدة للغتهم وعاداتهم.

وكان ذلك هو الأسلوب الذي خلف انطباعا جيدا لدى الشيخ البارز فهد بك بن هندال في جنوب العراق، فعندما نصب البريطانيون بعد عناء فيصل، الامير الحجازي، كملك على العراق، أيد الشيخ بقوة تلك الخطوة حيث قال 'نمنحك ولاءنا لأنك مقبول من الحكومة البريطانية'، وبالنسبة له، فان ذلك يعني بصفة عامة قبول بيل التي وفرت النظام والعدل لمواطنيه.

وتلك الاحداث تمثل جزءا من الروايات المألوفة للجهود البريطانية الخاصة بصياغة الشرق الاوسط الحديث، ودور بيل في هذا الصدد مروي ومعروف، ولكن من المهم ان نعيد النظر فيه، وبصفة خاصة بعد مرور ثمانين عاما من وفاتها في بغداد وانجازها في جمع خيوط دولة عراقية ذات مقومات، والتي باتت تواجه الآن خطر التفكك، ربما ساعد ذلك في معرفة الخلفيات الحقيقية لما يجري في العراق.

وبيل مثلها مثل تي.اي.لورانس حليفها في مجال القضية العربية، تعد شخصية معقدة والتي عكس اصرارها الثابت انتماءها الى اسرتها الثرية من ملاك المصانع، وهي تتمتع بالذكاء، وسرعة البديهة، والعناد وتلقت بيل دراستها في جامعة اكسفورد، حيث نالت درجة في التاريخ الحديث بامتياز، وبما انه لم تكن لديها حاجة الى عمل اي شيء تم تقديمها الى المجتمع الراقي، وقد كان في مقدورها التحول الى زوجة تسير في ركاب زوجها وهو امر كانت تحتقره. (وهنالك ايضا دور زجاجة حبوب الدواء قرب سريرها الذي لم يكشف النقاب عنه).

في طهران

وسافرت بيل مدفوعة بفضول لا يشبع الى طهران حيث دخلت عام 1892 في علاقة حب مع هنري كادوغان الدبلوماسي البريطاني، غير ان والدها رفض خطبتها له، مما خلف لديها فكرة ان الشرق يعد مكان الوعود غير المتحققة، وهو المفهوم الذي صاغته في كتاب انطباعات حول اسفارها عند عودتها، وكذلك ترجمة رائعة لقصائد الشاعر الفارسي حافظ، وزارت القدس بعد ثمانية اعوام من ذلك، وذهبت في رحلة في مناطق الدروز، وقد زادت تلك الرحلة من شهيتها للرحلات الصحراوية، فخلال خمس رحلات اخرى تمكنت من تعزيز معرفتها

بالعشائر وبالشخصيات في المنطقة، حتى اصبحت خبيرة في اثار الشرق الاوسط، وهو الاهتمام الذي قادها إلى الذهاب اول مرة الى العراق عام 1909 وقد كانت اكثر رحلاتها جرأة تلك التي قامت بها الى حائل، العاصمة النائية المحصنة لمنطقة وسط الجزيرة العربية المتنازع حولها، حيث كان آل الرشيد يواجهون ضغوطا من ابن سعود المدعوم من البريطانيين، وقد تم اسرها لعدة ايام، وفكرت في الفرار عبر الصحراء القاحلة، وذلك قبل السماح لها بالمغادرة.

صدمة الحب الثاني

خلال رحلاتها الصحراوية تحولت الى متسلقة جبال جيدة في منطقة الالب، وكانت تصيب مرافقيها بالذهول، حيث تتخلص من تنورتها وتبدي قوة وشجاعة ونشاطا وهي تخترق طريقها الى اعلى جبل مون بلونك Mon Blanc، وما ترهورن، وقد تم تسجيل انجازها في بلوغ 2632 مترا كذكرى حيث اطلق عليه قمة غيرترود. وحرصت مؤلفة هذا الكتاب هاويل على التركيز على الجانب الانثوي الرقيق لبيل موضوع كتابها، فهناك دون شك شعور بيل، على سبيل المثال بالحزن لفشلها في تجربة رومانسية لم تتكلل بالاستمرارية والنجاح، فبعد علاقتها مع كادوغان، دخلت في علاقة حب مع ديك داوتي ويلي، وهو ضابط متزوج وكذلك ابن شقيق شارلز داوتي مؤلف كتاب 'رحلات في الصحراء العربية'، الذي اعجبت به اعجابا بالغا، غير انه لم يستطع ترك زوجته التي وصفتها بيل بأنها 'سيدة صغيرة ودودة'، وقد بدا في مرحلة من المراحل ان علاقتهما قد تتوج بالزواج، الا ان بيل لم ترغب في الاتصال الجنسي، وبدأ حبه لها يتراجع. ومثل شهرزاد حاولت ان تستميله برواياتها لقصص رحلاتها، وقد اصيبت بصدمة بالغة عندما علمت، من خلال حديث عابر خلال حفل غداء، بموته في معركة غاليبولي.

في 'المكتب العربي'

وقد خفف من حزنها عليه الطلب منها الانضمام الى 'المكتب العربي - البريطاني' الذي يضم مجموعة مختارة من خبراء الاستراتيجية كانت تخطط في القاهرة كيفية استغلال العرب للعمل ضد العثمانيين المؤيدين للالمان. وقد تحولت من خلال معرفتها الممتازة للاوضاع السياسية المحلية الى اول ضابطة في الاستخبارات العسكرية البريطانية. وتقدم المؤلفة هاويل صورا قلمية ممتازة لبعض الشخصيات الغربية مثل سايكس ممن ايدوا المنطق المساند، وساندوا القبائل البدوية ضد الاتراك.

مع فيصل الأول

وانتقلت بيل بعدها الى البصرة، ومنها الى بغداد حيث كانت الهزيمة قد لحقت بالعثمانيين، وبدأ الشرق الاوسط يأخذ شكله الحديث، وحيث ظلت تعمل من دون كلل لتخطي عقبات التمييز، واقامة عراق مستقر تحت حكم الملك فيصل، وقد بدرت عنها لحظة ضعف مرة واحدة عندما اضطرت الى اكل لحم البقر المعلب لمدة 14 يوما متتالية وسقطت من عينيها الدموع.

وقدمت المؤلفة هاويل سكيتشات تضج بالألوان والعواطف وهو امر افتقرت اليه الروايات بالابيض والاسود حول حياة بيل، كما انها برعت في التصوير الفني للبساطة الاسرية لخيمة شيخ من الشيوخ، وفي نقل مناظر واصوات الصحراء، واناقة ازياء ومجوهرات بيل وتنوعها، وقد شكل ذلك جزءا من جاذبيتها، فقد كان البدو يعتبرونها ملكة، وهو تصور ساعد ثراء بيل في تمريره، مما منحها قبولا لم يحظ به لورانس.

وقد تم نقل رحلات بيل ببراعة وكذلك الاحداث السياسية للشرق الاوسط، وكان من الافضل ان كانت هاويل قدمت نقدا اكثر تفصيلا لهذه الشخصية المعادية للانثوية Anti Feminist، بشدة، ولكن في الوقت الذي تعاني فيه المرأة ضغوطا متزايدة في العالم العربي فيه امرا جيدا قراءة هذا العمل الجيد حول امرأة تركت بصمات واضحة.

ابنة الصحراء وعاشقة الشرق(2)

كانت تخفي أنها أنثى من دون أن تقصد
البداية: شراء حصان ودرس جديد في اللغة العربية

اسحاق بيل عالم الرياضيات جد غيرترود

'ميس بيل'، أو الآنسة غيرترود بيل، تعرف عن العرب والجزيرة العربية أكثر من معظم الانكليز الأحياء رجالا ونساء، صدرت هذه الكلمات عن اللورد كرومر، المندوب السامي البريطاني السابق في مصر في عام 1915.
فأثناء زيارة سياحية لها للقدس في عام ،1900 لم تكن 'مس بيل' تدرك كيف واين سيقودها وصولها الى هناك، لكن ربما تكون تلك هي بداية شغفها بالصحراء، فمعظم العالم كان يجهل تلك المنطقة التي تعرف بصفة عامة باسم بلاد العرب. وكانت امة واحدة تحكم تلك الصحاري غير المأهولة، والأودية الخصيبة، والجبال الوعرة، والمناطق القبائلية، والاراضي التي تخضع لحكم الأئمة والمشايخ، والمستعمرات التي تمثل مساحتها نسبة اثنين في المائة من كتلة الكرة الأرضية، اذ تصل تلك الاراضي الى نهر الأردن قرب شرق البحر الابيض المتوسط وقرن القارة الافريقية وبعدها جنوبا الى المحيط الهندي، ومن البحر الأحمر الى الخليج، وشمالا على طول حدود ايران الى الجبهة الروسية حيث تشكل تركيا حدها الشمالي.

شرق أوسط

هذه المساحة الشاسعة لم تطلق عليها تسمية 'الشرق الأوسط' حتى عام ،1902 عندما جرت صياغة العبارة على يد خبير الاستراتيجية البحرية الأميركي ألفرد ثاير ماهان. وفيما يختص بالغرب فانه حال شق قناة السويس في ستينات القرن التاسع عشر، باتت الطرق الصحراوية التي ظلت تقطعها قوافل الجمال محملة بالبضائع لعدة قرون، جزءا من الماضي، اذ حالما اصبح في استطاعة السفن التجارية الوصول الى الهند بسهولة، وذلك قبل ظهور ماكينات الاحتراق الداخلي، والنفط، ولم تعد تلك الكتلة من الاراضي الشاسعة مصدر اهتمام اي جهة، فيما عدا سواحلها الجنوبية وجبالها الشمالية، وعدا حكامها الاتراك الموجودين في القسطنطينية البعيدة والبلدان التي تعرف حاليا باسم سوريا ولبنان وإسرائيل وفلسطين والأردن والمملكة العربية السعودية والعراق كانت في ذلك الوقت مناطق غير محددة تقع ضمن الإمبراطورية العثمانية.

أساليب تركية
فلعدة مئات من السنين ظل الأتراك يتسللون إلى تلك المناطق، وفرضوا بعدها سيطرتهم على البلدان والمدن الكبرى التي تحيط بالصحاري وتقع في قلب الشرق الأوسط. وقد أدخل العثمانيون قوانين نابليون، واللغة التركية كلغة للإدارة والتعليم في تلك المناطق. كما جذبوا بعض الشخصيات العربية البارزة ضمن الشبكة التركية التي أقاموها حيث قدموا لهم المكافآت لولائهم وذلك حتى تحولت تلك القبضة الناعمة إلى أخرى قاسية. وقد تم الحفاظ على هذا الوضع من خلال الفساد المنظم، وزرع العداوة بطريقة متقنة فيما بين سكان المنطقة. ولكن وكما اكتشفت غيرترود وبسرعة ان السلطة العثمانية لم تتغلغل سوى بضعة أميال في المناطق الصحراوية حيث يتصرف شيوخ البدو بحرية تامة، ويدافعون عن آبارهم الثمينة وطرق قوافلهم، والمراعي الشحيحة في وجه جيرانهم ومنافسيهم، وقد ظلت الصحراء يسودها غياب القانون، ولا يمكن قطعها او المرور عبرها من دون ان يكون الشخص متسلحا بالشجاعة ومعرفة اللغة العربية وسياسات العشائر البدوية وعاداتها، كما ادركت ذلك غيرترود حتى تم الترحيب بها في خيامهم.

اليهود تجار المدن

كانت المدن العربية كوسموبوليتية، وكان اليهود الناجون بعد تدمير مجتمعاتهم على ايدي الرومان في القرن الاول الميلادي قد لجأوا اليها، واستمروا في العمل في مجال التجارة، حيثما امكنهم ذلك، وقد انتعشت وازدهرت حياة اليونانيين والمصريين والفرس والارمن والآشوريين المسيحيين، اضافة الى المسلمين من تجارة قوافل الابل، فيما بين الهند واوروبا وافريقيا، كما ربحوا من عوائد الحج السنوي الى مكة والمدينة، وعملوا مسؤولين صغارا في الادارة التركية.

القدس.. محط الأنظار

والمدينة الاكثر كوسموبوليتية كانت القدس، التي تواصل غزوها عبر القرون منذ مغادرة الرومان لها، وقد تحولت الى مدينة عربية، ألحقت بالامبراطورية العثمانية عام 1840، ومنذئذ ظلت محط تركيز كل الدول الاوروبية، التي ترغب في تأكيد تاريخها الديني، فقد بنى الفرنسيون، والبريطانيون، والالمان والايطاليون والروس بصفة خاصة، كنائس ومستشفيات وكليات هناك، وبحلول الوقت الذي وصلت فيه غيرترود اليها كانت الجالية اليهودية تكتسب نفوذا، مما زاد من عدد مستوطنات اللاجئين، ومدينة القدس التي كانت تضم سبعين الف نسمة كانت محورا للثقافات والمصالح الخاصة عند مدخل بلاد العرب.

بيل في القدس

لم تبدأ حياة غيرترود كرحالة في ارجاء الصحراء حتى بلوغها سن الثانية والثلاثين، وذلك عندما قبلت دعوة لحضور اعياد الميلاد قدمتها لها نينا روزين صديقتها القديمة، وزوجة القنصل الالماني في القدس حينها. وكانت القنصلية الالمانية صغيرة فيها ثلاث غرف نوم فقط، وقد تشارك طفلا عائلة روزين احدى تلك الغرف، واقامت في الحجرة الثانية شارلوت شقيقة نينا، وكانت غيرترود تنوي الاقامة لعدة اشهر في القدس، وحجزت غرفة في فندق القدس، الذي يبعد مسافة دقيقتين عن القنصلية، حيث يمكنها تناول الوجبات مع الاسرة والقيام بزيارتها.

أسلوب حياة.. وعمل

والاستقرار في فندق في الشرق الاوسط ، سواء ان كان ذلك في القدس او دمشق او بيروت او حيفا يشكل طقسا سعيدا، بل يعد بداية مهمة للتنظيم الدقيق الشامل المطلوب في بداية رحلات غيرترود الاستكشافية، وفي هذه اللحظة بالذات كانت ترغب فقط في شراء حصان وبداية كورس جديد في اللغة العربية، غير ان تلك الترتيبات الاولية وضعت نسقا لن يتغير البتة، فهي تحجز دائما غرفتين مع شرفة تطل على منظر، وتحول احدى الغرفتين الى مكان لعملها، للترتيب للحملة المقبلة، وهي تضع كرسيين وطاولتين ولا تضع اي قطعة اثاث اخرى فيها. وبعد اخراج كتبها من الكراتين وكذلك الخرائط تثبت صورها على الحائط باستخدام مطرقة صغيرة ومسامير احضرتها معها لهذا الغرض.

وفي هذه الزيارة الاولى عينت فورا مدرسا وشرعت في تلقي ستة دروس في اللغة العربية اسبوعيا. وكانت تقضي بقية الوقت قبل فترة اعياد الميلاد في ركوب الخيل والانضمام الى اسرة روزين واطفالهما ومشاركتهم في اعمال الزينة الخاصة بالميلاد.

اليأس.. من العربية

وكانت غيرترود تتحدث الفرنسية والايطالية، كما ان معرفتها باللغة الفارسية كانت جيدة وكذلك الالمانية. وهي تفهم القليل من العبرية وتستطيع تعلم التركية بسهولة ولكنها كانت اللغة الوحيدة التي لم تستمر في تعلمها. وقد تأكدت من صعوبة تعلم العربية وبأكثر مما توقعت. والتقدم البطيء في تعلم هذه اللغة لم يفت من عزمها، وقد اصيبت في اول اسبوعين في تعلم العربية باليأس وجربت عددا من الخيول قبل ان تختار حصانا عربيا

صغيرا. ودفعت مقابله حوالي 18 جنيها استرلينيا وكانت تأمل في ان تبيعه بالسعر نفسه عند مغادرتها، وبدأت بركوبه لاستكشاف التلال والاودية. كما اصبحت تحمل معها كاميرا للتصوير الى الاماكن التي تذهب اليها حيث صورت النساء اثناء سيرهن الى جوارها في الشوارع وطقوس التعمير للحجاج الروس. وفي اطراف القدس توقفت لمشاهدة خيمة من خيام البدو السوداء التي اختفت في اليوم التالي من دون ان تخلف اي اثر.

الرحلة الاستكشافية الأولى

وفي مارس عام 1900 وعلى الرغم من سوء الاحوال الجوية، قررت غيرترود القيام برحلة استكشافية لمدة عشرة ايام او نحو ذلك في منطقة تلال مؤاب، حيث قطعت حوالي سبعين ميلا على طول الشاطئ الشرقي للبحر الميت. وكانت تلك اول رحلة تقوم بها بقافلتها الخاصة وطاقمها المكون من ثلاثة اشخاص: طباخ واثنان من سائقي البغال لا يتحدث اي منهم اللغة الانكليزية وقد وضعت في اعتبارها اختيار دليل للرحلة اثناء سيرها، ربما جندي تركي ليتنقل فيما بين الحماميات المختلفة.

أعجبها قائد البغال

وحال وصولها الى السهل الاردني وجدت نفسها غارقة في حقل من الزهور البرية. وتقع بعده حقول للذرة كان قد زرعها البدو الذين سيحصدونها عند عودتهم. وتحسنت لغتها العربية، وكانت تتحدث بصفة اساسية الى محمد، قائد البغال الدرزي، الذي كان يتناول فقط الارز والخبز والتين. وقد اعجبت به، وأحبت حكاياته حول موطن عشيرته. وقررت ان تزور سوريا للقاء ابناء عشيرته. وفي أثناء شرائها للزبادي من اسرة من عشيرة الغنيمات توقفت لإجراء حديث عابر مع النساء والاطفال.

وعند بلوغها قلعة الصليبيين في الكرك كان عليها العودة الى القدس لكنها غيرت رأيها وأضافت ثمانية ايام اخرى لرحلتها لزيارة الآثار النبطية في البتراء. فقد كانت ترغب في مشاهدة ذلك المبنى الجميل المنحوت من الاحجار الجيرية ذات اللون الوردي. وعندما جاء مسؤول تركي لتفتيش قافلتها ومعرفة وجهتها، ادركت انه كان عليها الحصول على اذن، وتظاهرت بأنها ألمانية، لأن الاتراك كانوا حذرين من الانكليز. وطلبت منه اخذها الى الحاكم المحلي الذي حصلت منه على اذن للسفر باتجاه الجنوب بصحبة جندي كدليل لها.

عند بني صخر

واتخذت القافلة الصغيرة بصحبة الدليل طريقها عبر مجموعة من طيور البجع التي كانت تلتهم سحابة من الجراد،وبعدها بقليل وجدوا انفسهم بالقرب من مخيم لبني صخر، العشيرة المقاتلة التي كانت آخر من يستسلم للحكم التركي، ولم تكن تدرك بعد قوانين الصحراء وضوابطها، اذ انها لم تكن تعرف انها حال وصولها الى مخيم او مضرب من المضارب، عليها القيام فورا بزيارة مجاملة الى الشيخ في خيمته، وبما انها كانت في صحبة جندي تركي وليس مع دليل محلي تدفع له اجره، فإنها وجدت نفسها تواجه مشكلة، فقد تعرضت قافلتها للتهديد مرتين على يد عدد من افراد عشيرة بني صخر المدججين بالسلاح، وقد ظهروا فجأة، وأحاطوا بالقافلة من جانبين وتراجعوا فقط عندما انضمت غيرترود الى الجندي التركي الذي كان يتبعها.

وعند بلوغها الطريق الى مكة، الذي يتخذه الحجاج لأداء فريضة الحج، وجدت انه لم يكن طريقا بالمعنى المعروف كان عريضا ومكونا من مئات المسارات التي خلفها سير القوافل التي يجيء بها الحجاج ويعودون الى ديارهم. وقد تعلمت خلال هذه الرحلة مبادئ الرحلات الصحراوية. وقد اكتشفت ان الخرائط تشتمل على اخطاء عديدة، وغالبا ما تسيء تقدير المسافات. وقد كان لديهم ماء ولكن الشعير والفحم نضبا وبقي معهم بعض الارز والخبز والقليل من اللحم. وتوقفوا في احدى القرى، معتقدين ان في مقدورهم شراء شاة او ربما دجاجة، لكنهم لم يحصلوا على اي شيء.

مع الغجر والكوب الواحد

لم يمض وقت طويل على ابتهاجها برؤية الواجهة الجميلة الساحرة لمباني البتراء والمسرح القريب منها، حتى باغتهم الجوع. ووصلت في وقت متأخر الى خيمتها في وادي موسى، حيث وجدت العديد من الحشرات ومع ذلك تمكنت من النوم نوما مريحا.

ومن البتراء عادت الى الشمال باتجاه البحر الميت، حيث اقامت خيمتها بجانب مخيم للغجر. وقد شاركتهم عشاءهم من الجبن الابيض وكوب من القهوة الذي كانوا يمررونه فيما بينهم، والجميع يشرب منه. ومع حلول الظلام بدأوا في عزف الموسيقى.

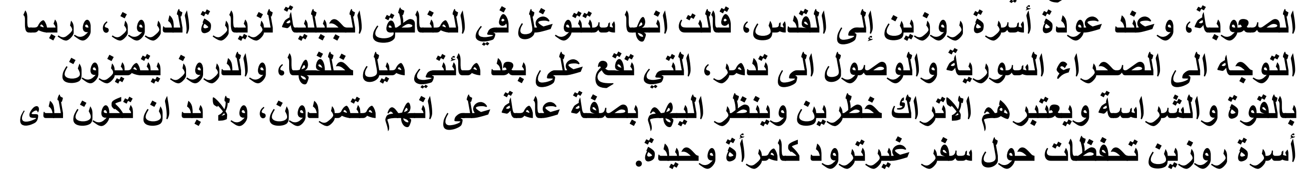
وقد بلغت نهاية رحلتها الاولى الاستكشافية، التي قطعت فيها 135 ميلا في ثمانية عشر يوما، وتعلمت خلالها درسا جديدا هو ان تعمل على حماية نفسها من حرارة الشمس. ففي رحلاتها اللاحقة في الصحراء السورية كانت ترتدي الكوفية التقليدية (الغترة) التي تربطها فوق القبعة وتلفها بأسفل وجهها، وخمارا ازرق بفتحات صغيرة تغطي وجهها حتى تتمكن من الرؤية. وكانت تخفي انها انثى من دون ان تقصد ذلك.
القبس الكويتية

مس بيل'ابنة الصحراء وعاشقة الشرق(3



بيل تعلمت العربية الفصحى والدارجة.. ولغة المجاملات
حاكم 'معجب' زارها في خيمتها ليلا .. وتمكنت من الهرب

صورة تعود لعام 1900 .. غير ترود في دوريس (مدخل مدينة بعلبك اللبنانية) تركب الحصان وترتدي الكوفية

وعدت أسرة روزين ضيفتها غيرترود بقضاء أسبوع في رحلة استكشافية الى جبل الدروز، حيث منطقة بصرى إلى الشمال، وبصرى مدينة رومانية فيها قلعة وأقواس للنصر. وبحلول ابريل كانت قد توغلت لوحدها في الصحراء لعدة أسابيع في كل مرة، وباتت تعتقد ان الأمر ليس بتلك

الصعوبة، وعند عودة أسرة روزين إلى القدس، قالت انها ستتوغل في المناطق الجبلية لزيارة الدروز، وربما التوجه الى الصحراء السورية والوصول الى تدمر، التي تقع على بعد مائتي ميل خلفها، والدروز يتميزون بالقوة والشراسة ويعتبرهم الاتراك خطرين وينظر اليهم بصفة عامة على انهم متمردون، ولا بد ان تكون لدى أسرة روزين تحفظات حول سفر غيرترود كامرأة وحيدة.
بدأت الرحلة بكل ارتياح، حيث اصطحبت اثنين من الطباخين وسائق البغال محمد ومعه اثنان لمساعدته، بالاضافة الى خمسة بغال لنقل المعدات والاغراض، وكانت تسجل في مذكراتها التي كانت تكتبها في خيمتها كل ليلة تقريبا كل المواقع الأثرية التي تمر بها، وكل مضارب القبائل التي في طريقها مثل عباد وبني حسن، عدوان، وحوران، وعنزة.

مفاوضات مضنية

وفي بصرى تجولت في المدينة ودخلت في مفاوضات مضنية مع المدير أو المسؤول العربي المحلي، حول بقية رحلتها، وكان الاجراء المتبع هو طلب الاذن لدخول مناطق الدروز، ولكنها كانت تدرك بانها لن تستطيع الحصول عليه، وبالتالي فقد تظاهرت ان وجهتها هي سلخاء الواقعة في الشمال الشرقي، حيث ترغب في مشاهدة الآثار. وهي لم تكن أول رحالة في الصحارى يستخدم مسألة التنقيب على الآثار كحافز ظاهري للرحلة التي تكون لها أسباب مختلفة، الا ان تلك كانت هي المرة الأولى التي تقوم فيها بذلك، وبحلول ذلك الوقت كانت معرفتها باللغة العربية أصبحت جيدة بحيث انها باتت تعرف لغة التعامل والمجاملات الاجتماعية، كما بدأت

تتقن المستويين في اللغة أي الفصيح والدارج.

مفاجأة في الخيمة

وكان لقاؤها مع الحاكم العسكري في المدينة لقاء سيئا، فقد كان يرتدي قميصه الداخلي بينما كان احد العاملين معه يحلق له لحيته طوال فترة المقابلة، وكانت عيناه قد زينتا بالكحل ولم يعجبها المدير، وقد زاد عدم اعجابها به عندما زارها فجأة في خيمتها في وقت متأخر من الليل واطفأت شمعتها على عجل، وابلغت طباخها ان يقول انها نائمة، واثناء استراحتها ليسمع الحديث، سمعت الرجل يقول محذرا إنه لا يمكنها الذهاب الى اي مكان من دون تصريح، وحالما يكون هنالك تهديد من اي نوع لتقييد حركتها فإنها تنصرف بسرعة. وقامت باخلاء المخيم في الساعة الثانية فجرا، وببزوغ الشمس كانت قد قطعت مسافة بعيدة في طريقها باتجاه الشمال. لانها كانت تدرك ان المدير قد يطلب ملاحقتها.

وكانت المرأة الأولى التي تسافر وحدها في تلك الانحاء بل ان طاقم مرافقيها كان ينتابهم القلق جراء ما يمكن ان يحدث غير ان الحظ كان إلى جانبها. ومنذ لحظة وصولها الى قرية درزية تقع في سفح جبل كليب استقبلت استقبالا حارا وعوملت بعطف، واحترام.

كانت تدرك ان عليها ان تقوم بزيارة مجاملة تقديرا لزعيمهم يحيى بك. كما اتخذت الخطوة التالية الصحيحة في اسلوب المعاملات في الصحراء التي تجعل الزائر يحظى بحماية العشيرة. وكان المحارب القديم، وزعيم العشيرة الأول الذي تتعرف عليه، قد اطلق سراحه اخيرا بعد قضاء خمس سنوات في السجن التركي. وكان شخصا رائعا، شديد الوسامة ومهذبا، حسب وصفها.

اللياقات المفيدة

وضع الحشايا على الارض، وربت عليها ودعاها للجلوس معه والانضمام اليه ورجاله لتناول وجبتهم من اللحم والفاصوليا، فأكلوا بالايدي من طبق كبير وضع في الوسط. وسألها عن رحلتها وطلب من بعض رجاله اطلاعها على جميع المواقع الاثرية في المنطقة، واصطحابها بسلام الى وجهتها التالية. وقبل مغادرتها طلبت الاذن بالتقاط صورة له. وقد ادركت المدى الذي تصل اليه حماية الشيخ الاكبر، وذلك عندما سمعت بعد اسابيع من ذلك ان يحيى بك استمر في متابعة تقدمها، وظل يبعث بالرسائل يسأل فيها القرويين 'هل رأيتم ملكة او قنصلة تتنقل في مناطقكم؟' فقد كانت تنتقل باسلوب ينم عن ذوق رفيع، فهي تحمل معها اقشمة الكتان، والاكواب الزجاجية، والشوك والسكاكين التي كانت تستخدمها يوميا والتي ربما تكون قد استعارتها من القنصلية.

ماء بالحشرات

وقبل مغادرة المنطقة زارت قرية اخرى حيث اثارت اعجابها وسامة الرجال. وقد ظهر عليها بعض الحرج عندما كتبت عن هذا الامر الى اسرتها. واقامت لفترة قصيرة في دمشق وتوجهت بعدها الى تدمر وبصحبتها ثلاثة من الجنود الاتراك حيث تفادت طرق السياح، وقد اكتسبت بعض القوة فهي لم تكن الى ذلك الوقت تشرب الماء العكر ولكن بعد يومين من التنقل من دون ماء اغمضت عينها وشربت من ماء بركة تعوم فيها الحشرات والدود.

وتنقلوا ببطء عبر الصحراء حيث ينطلقون قبل بزوغ الشمس. وكان الدليل احمد يسير في المقدمة وهو يرتدي ثيابا بيضاء. والى جانبها يسير الجنود الثلاثة وخلفها تسير البغال التي يمكن سماع رنين الاجراس المعلقة على اعناقها، وقد اذهلها الصمت المطبق الذي يسود الصحراء وهو يفوق الصمت في اعلى الجبال، حيث يمكنها سماع نوع من الصدى لسقوط الجليد والاحجار، اما هناك فإنها لم تسمع اي شيء.

وكانت تتعلم درسا جديدا كل يوم في كيفية البقاء على قيد الحياة في الصحراء، كما تحسنت لغتها العربية حيث باتت تستطيع تبادل الحديث حول سياسات الصحراء مع كبار رجال العشائر ممن تلتقيهم في طريقها. وقد بدأت تشارك ايضا في تدخين النارجيلة التي تدور بينهم اثناء تبادل الحديث، ولم تعجبها في البداية، لكنها بدأت تدريجيا تستسيغ تلك العادة.

على ظهر الحصان

واصبحت غيرترود تمضي ما بين عشر واثنتي عشرة ساعة على ظهر الحصان كل يوم، وكانت تمضي اوقات التنقل هذه في القراءة او النوم على ظهر الحصان، وتعلمت كذلك كيفية ترك عنان الحصان لكي تراجع الخرائط او للإمساك بالشمسية اثناء السير.
واثناء صعودهم الى التلال اصبحت ترتدي معطفين وبطانية، واصبحت الطريق وعرة مع اقترابهم من تدمر، استيقظوا آخر يوم في منتصف الليل، واستمروا في السير حتى شروق الشمس، وبدت لهم قلعة تدمر في الافق، وقد علتها سحابة من الغبار، وقد اعتبرت الابراج واعمدة الشوارع، ومعبد بعل الضخم من اجمل الاشياء التي شاهدتها منذ زيارتها الى البتراء، وقد امضت يوما كاملا في استكشاف المدينة والقيام بزيارات للمجاملة الى كبار المسؤولين، وعادت بعدها الى متابعة الرحلة.

الطريق إلى دمشق

في الطريق الى دمشق، انضمت اليهم قافلة كبيرة من الجمال، كانت قد قدمت من منطقة نجد للتسوق، وكانت تقودها مجموعة من رجال قبيلة العقيل برئاسة شيخهم، وكانت القافلة تخشى الهجمات التي قد تتعرض لها، ورغبت في الحصول على الحماية الاضافية التي يوفرها وجود جنود غيرترود الاتراك الثلاثة اذا ما كانت هنالك حاجة لذلك. وكانت غيرترود بدورها تود الحديث الى الشيخ ومعرفة احوال صحراء نجد المخيفة التي كانت ترغب في زيارتها يوما ما. كما انها باتت تعرف مسألة رد الجميل وتود ان يكون لديها جميل لدى قبيلة العقيل.

وفي طريق العودة، التقت مصادفة بعربة على متنها سائحتان، وهما سيدتان انكليزيتان كانت قد التقتهما في القنصلية في القدس. وكانتا في غاية الاناقة والنظافة، وقد تساءلتا عن عدم نظافة ثيابها وعدم ترتيب شعرها، وابتعدتا عنها وعن رجال قبيلة العقيل الذين كانوا يحملون السكاكين، ورماحا طويلة، غير ان غيرترود سعدت للقاء مس بلاونت ومس غريث مرة اخرى وصعدت الى عربتهما، حيث تناولن الشاي الانكليزي وبسكويت الزنجبيل.
وفي منتصف الطريق الى دمشق نصبت مخيمها حيث شاهدت مجموعة من الحسبينة بخيامهم السوداء قادمين من مضاربهم الشتوية، وجاء لزيارتها شيخهم محمود الوسيم الذي يبلغ عمره عشرين عاما او اقل، وقد ردت له الزيارة في وقت لاحق في خيمته، وجلست مع مجموعة الرجال الذين كانوا يحيطون به. وعند تقديم القهوة بدأ احد العازفين يعزف على الربابة، وبعد فترة قصيرة ودعتهم وغادرت المكان.
وحال وصولها إلى خيمتها، قال لها الجنود انها ارتكبت خطأ فادحا. فقد ذبح لها الشيخ شاة تكريما لها، وكان يتم طبخها وإعدادها. وان المغادرة قبل تقديم الطعام يعتبر إساءة. كما انه كان عليها تقديم هدية للشيخ عند زيارته. وبما انه شيخ فيجب أن تكون الهدية قيمة إما حصانا وإما بندقية. وقد أزعجها هذا الأمر وأخذت مسدسا من أفراد الطاقم المصاحب لها ولفته في منديل وأرسلته إلى الشيخ محمد مع رسالة تقول إنها لم تكن تعرف ان هنالك وليمة أقيمت لتكريمها. وعاد الجندي وهو يحمل دعوة لها من الشيخ بالعودة للانضمام إليهم.

وقد عادت إلى دمشق بعد ان أصبحت رحالة صحراوية ذات خبرة وتجربة. وأقامت بعدها في القدس لدى أسرة روزين، حيث قامت بالمزيد من الرحلات الاستكشافية قبل عودتها إلى إنكلترا.

في حيفا

بعد عامين من مغامراتها الأولى، ذهبت غيرترود إلى حيفا حيث أمضت شهرين اجتهدت فيهما في تحسين لغتها العربية. وقد مضت تسع سنوات منذ بداية تعلمها للعربية. وأجرت مسكنا في جبل الكرمل فيه غرف عديدة وحديقة فيها زهور برية وياسمين. وكانت تراجع دروسها في غرفة الطعام لمدة أربع ساعات في اليوم وساعتين ونصف الساعة في تعلم اللغة الفارسية، كما كانت تمارس رياضة ركوب الخيل في التجول في المناطق الريفية في ساعات فراغها.. وقد بدأت تخلق حولها حلقة من المعارف الذين تتبادل معهم الحديث حول الأحوال السياسية المعاصرة.

وحال اتقانها الحديث بالعربية بسهولة شرعت في القيام بأول خمس رحلات استكشافية غير عادية في منطقة الشرق الأوسط، أي رحلتها لأربعة أشهر على ظهر حصان في عام 1905 التي بدأت من القدس إلى جبل الدروز وانتقلت بعدها إلى الصحراء السورية ثم إلى دمشق فشمالا إلى حلب.

ثم عبرت إلى تركيا عن طريق انطاكيا عبر الأناضول فالقسطنطينية، حيث قطعت مئات قليلة من الأميال بالقطار. وفي عام 1907 وصلت إلى سميرنا على شاطئ البحر الأبيض المتوسط في تركيا، وتنقلت على صهوة حصان مرة أخرى من موقع أثري إلى آخر. وكانت تتنقل ببطء في اتجاه الشرق حتى بلغت بنبيركليس حيث عملت مع برفيسور رامزي، وبعدها سافرت بالقطار إلى الوطن عبر القسطنطينية.

الرحلة الأطول

في فبراير من عام 1909 بدأت بيل أطول رحلة تقوم بها وكانت إلى حلب قاطعة طريق الصحراء الشمالية إلى نهر الفرات في شمال غرب العراق الحالي، وتابعته حتى وصلت إلى بغداد. وفي الصحراء الغربية التقطت صورا لقصر الخضير الفخم وقاست أبعاده. وذهبت بعدها إلى مواقع بابل الأثرية قبل وصولها إلى نهر دجلة. وتابعت السير على ضفاف هذا النهر باتجاه الشمال عابرة الجبال الغربية، وعبر الحدود التركية إلى منبعه في أعلى هضبة طور عابدين. وبلغت ماردين بعد خمسة شهور من التنقل فوق صهوة الحصان حيث اتجهت مرة أخرى إلى القسطنطينية.

وفي فبراير عام 1911 توجهت إلى دمشق في ظروف جوية سيئة. واقامت في البداية مخيما في منطقة تغطيها طبقة كثيفة من الثلوج، وعانت من انزلاق الجمال وسقوطها فوق طبقة الارض المتجمدة. وعبرت الصحراء السورية غير المأهولة باتجاه الجنوب، وزارت النجف وتوجهت بعدها نحو الشمال مرة اخرى حيث استقرت لفترة في بغداد. وتابعت بعدها السير على طول ضفاف نهر دجلة، حيث توغلت في جنوب تركيا، وزارت طور عابدين مرة اخرى. وعادت الى حلب في سوريا في مايو حيث غادرت الى الوطن عبر بيروت.

وفي بداية نوفمبر عام 1913 قامت غيرترود برحلة كبرى على ظهر الجمل حيث عبرت الصحراء العربية مرات عدة وبقافلة كبيرة مجهزة بالخدم والطواقم ومجموعة من الحيوانات. وقطعت منطقة نجد حيث بلغت مدينة حائل. وانطلقت بعدها باتجاه بغداد لقضاء فترة قصيرة من الراحة قبل ان تتوغل في الصحراء مرة اخرى. وبعد عبور الصحراء السورية للمرة الثانية، وصلت دمشق في اواخر مايو ومنها عادت الى الوطن للاستشفاء وذلك قبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى.

ركزت جميع رحلاتها تلك على زيارة المواقع الأثرية في مناطق لم تكن تظهر في الخرائط القديمة. وكانت تدرك تماما انها تفتقر الى التأهيل اللازم لمن يعمل في مجال الآثار. وقد كانت رحلاتها فرصة لتعلم مهارات عملية جديدة وانها اثناء مرورها عبر اراض لا تظهر على الخرائط القديمة كانت تجدد مواقع الآثار، وترسم الخرائط، وتسجل أوصافها. وكانت قد حضرت دروسا لتتعلم كيفية قياس ورسم ما كانت تعثر عليه من آثار. كما تحولت الى مصورة ذات مهارة وعضوا في جمعية التصوير الملكية. وبهذه الصفة تمكنت من طباعة صورها بأسلوب مهني وكانت تحمل كاميرتين للتصوير أينما ذهبت. احداهما عادية والاخرى للقطات الواسعة البانورامية، وتحتفظ كلية الدراسات التاريخية في جامعة نيوكاسل بسبعة آلاف صورة من صورها.

كما ان مفكراتها التوثيقية للمباني القديمة والكنائس تحمل مظهر تلك المباني كما شهدتها عند تصويرها وقبل ان تعتريها آثار التآكل قبل القرن العشرين.

مس بيل' عاشقة الصحراء (4



'ما شاء الله.. بنت عرب'!
اعتبرت وصفها ب'الجاسوسة' أمرا غريبا ومسيئا
فتوح مرافقها وسائس بغالها

بدأ اهتمام غيرترود بالآثار منذ العطلة التي قضتها في اليونان عام 1899 مع والدها وعمها توماس مارشال، الذي كان استاذا متخصصا في الدراسات الكلاسيكية، وهناك التقت الدكتور ديفيد هوغارث الاكاديمي شقيق زميلتها جانيت في اكسفورد. وكان وقتها يستعد لبدء عملية التنقيب وتقديم يد المساعدة. وبعد عامين من تلك العطلة مع والدها انضمت لعمليات التنقيب عن الاثار في مواقع بيرغامون وماغنيزيا وسارديس القديمة.

العودة الثانية

بحلول عام 1904 كانت غيرترود غارقة في خططها الخاصة برحلاتها عبر غرب سوريا واسيا الصغرى وكانت تلك اول رحلة لها بعد رحلة القدس.
وفي يناير عام 1905 انطلقت من بيروت حيث اشترت حصانين قويين واتجهت جنوبا على طول الساحل، وكان لديها طاقم صغير من المرافقين وجلبت معهما اثنين من البغال لحمل خيمتها واغراضها وبعض الهدايا التي قد تقدمها للشيوخ.

بدأت الرحلة بداية سيئة وزادت سوءا قبل وصولها الى 'قونية' في الاناضول وعانت من الاوحال في رحلتها من بيروت الى القدس والامطار الغزيرة، وكان هدفها المعلن هو العودة مرة اخرى لزيارة جبل الدروز من دون الاتصال بالسلطات التركية التي تمكنت من الفرار منها في المرة السابقة. فقد يسمع الاتراك انها موجودة في المنطقة، ويصرون على تخصيص مرافقين لها حيث سيتذكرون كيف انها تمكنت من التخلص منهم خلسة في المرة السابقة. وسيؤدي هذا الامر الى اعاقة خططها الهادفة الى لقاء الشيوخ وزيارة المواقع الاثرية في مناطق غرب سوريا. فهي الآن باتت تعتمد على معرفتها للعربية كأداة اساسية في اتصالاتها.

وبواسطة دراسة الخرائط استطاعت ان تحدد الطريق الذي يجعلها تتفادى الاتراك للوصول الى جبل الدروز، وفي طريقها التقت مجموعة من البدو من بني صخر، وكانت مجموعة من القبيلة نفسها قد هددت غيرترود وهي في طريقها الى البتراء وذلك قبل ان تتعلم كيفية كسب ودهم وصداقتهم والحصول على مساعدتهم. والآن فقد اعتبروها واحدة منهم حيث يقولون عنها 'ما شاء الله! بنت عرب'.

وفي الصحراء تنتقل الاخبار مثل الريح فاصبح شيوخ العشائر يبعثون باقاربهم لمرافقة غيرترود وحمايتها خلال رحلتها داخل مناطق الدروز، وبعدها اصبحت في ضيافة الشيخ فلاح.

شاركت في مجلسه، الذي يجري فيه تبادل الحديث والقصص والشعر وغزوات القبائل وحكايات الاضطهاد التركي، وكتبت غيرترود عن مشاركتها حيث قالت انها قرأت عليهم بعض شعر المعلقات وثلاثة او اربعة امثلة عن طريق استخدام بعض الكلمات العربية القديمة، وكيف ان ذلك قد اثار اهتمامهم.

بين غزوة وأخرى

بعدها وصلت الى احد مضارب عشيرة بني حسن، حيث وجدت الحزن يخيم عليهم، فقد تعرضوا لغزوة على يد رجال من عشيرة صخر والحويطاط الذين نهبوا حوالي ألفي رأس من البقر، والعديد من الخيام.

وأثناء فترة العشاء يوم وصولها سمعت بعض الغناء والاناشيد الحماسية وأصوات اطلاق النار في الخارج، حيث يسود الظلام، وخرجت من خيمتها ورأت ألسنة النيران ترتفع من برج القلعة القديمة، وبالتالي تركت العشاء وذهبت الى سفح الجبل، حيث شهدت الاستعدادات تجري لشن غزوة ردا على الغارة التي شنتها عليهم عشيرة بن صخر، وقد انتهت تلك الاستعدادات بانطلاقة الى اسفل الجبل وكانت اول امرأة تذهب الى السفح حيث المقاتلون.

وفي قرية صالح الدرزية وجدت المأوى، لاحظت ان الرجال يعرفون اسم وزير المستعمرات جوزيف تشامبرلين وأبدوا اهتماما باللورد سالسبيره، رئيس الوزراء السابق وأبدوا اسفهم عند سماع خبر وفاته.

في المسجد الأموي

وبعد مغادرة منطقة الدروز اقامت ليلتين مع بعض رجال عشيرة غيث، وبعدها وصلت الى دمشق، حيث استقبلت بدعوة من الحاكم، وعرفت انه وصلتهم ثلاث برقيات حول اختفائها، وتحولت في سوريا الى شخصية مهمة ايضا، وزارت المسجد الأموي حيث خلعت حذاءها عند الباب وأثرت فيها صلاة المغرب تأثيرا عميقا، وقد كتبت تقول 'ان الاسلام اعظم جمهورية حيث لا توجد طبقية ولا عرقية في هذا المعتقد وقد بدأت ادرك قليلا عظمة هذه المدينة المشرقية'.

ادركت بعد وقت قصير كونها باتت شخصية معروفة ليس دائما في مصلحتها، ففي وقت لاحق من رحلتها اكتشفت انها كانت تخضع للمراقبة في دمشق من قبل شرطي كان يتابع تحركاتها من دون ان تدري، ووصلت بعدها الى حمص حيث اكتشفت ايضا انها لا تستطيع ان تتمشى عبر السوق القديم من دون ان تلفت الانتباه والانظار، وكان عليها استئجار جندي لإبعاد الجموع عنها لتتفادى السلطات التي رغبت في تخصيص ثمانية مرافقين لحمايتها اثناء الليل، ولكنها رفضت قبول اكثر من اثنين من المرافقين.

واتجهت الى حلب في صحبة مسافرين اكراد وسجناء مكبلي الايدي والارجل، وبلغت حدود الاناضول، حيث كانت تنتظرها السيول والجسور المهدمة، وتوقفت هناك لاستكشاف المدن، وتسجيل الكتابات الموجودة في الموقع الاثري، وبلغت بعدها 'قونية'. ومن قونية ركبت القطار متجهة الى بنبير كلييس، وكانت قد عرفت عن هذه المدينة ـ القلعة، التي توجد فيها كنائس واديرة قديمة، من خلال كتاب 'آسيا الصغرى' من تأليف ستيرغو يسكي الصادر في عام ،1903 والذي يركز على الاثار البيزنطية المبكرة، وقد جلبت الكتاب معها، وكانت تقوم برحلاتها الاستكشافية كل يوم منطلقة من قونية التي تعود اليها في المساء. وكلما توغلت عميقا في الشرق زاد احترامها للناس، وقد عبرت عن ذلك في مذكراتها.

وعند قيامها برحلتها الى الشرق الاوسط في عام 1909 زادت صفحات مذكراتها التي تضخمت، وقد كانت خليطا من التفاصيل الاثرية الشاملة، والملاحظات المقتضبة حول الناس والاشياء التي تصدر عنهم، كذلك القضايا السياسية والاقتصادية، وتفاصيل الحياة اليومية في الصحراء واحيانا كانت تكتب ملاحظاتها باللغة العربية او التركية.

ما الهدف؟

لماذا اقدمت غيرترود على القيام بكل ذلك العمل؟.. ولماذا اضاعت هذه الشابة الثرية سنوات من عمرها، وبذلت جهدا لتعلم اصعب اللغات في العالم، وعرضت نفسها لأكثر الظروف صعوبة ولمخاطر جمة، والذهاب الى اماكن غير معروفة حتى انها لا تظهر في اي من الخرائط المعاصرة؟

غيرترود امرأة تعتز باستقلاليتها، وتتميز بقدرات عديدة، وهي ورثت حب المعرفة من لوثيان بيل الذي يقر العالم باسره بانجازاته العلمية والتكنولوجية، وبالنسبة لغيرترود فان الفضول في البداية سيشكل الاولوية على تحقيق هدف من الاهداف، وهي كانت قد حققت انجازا في مجال تسلق الجبال، وحالما تتفوق في مشروع من مشاريعها تجدها تتحرك باتجاه مشروع آخر، فهي مدفوعة بالحاجة الى اختبار نفسها، كما كانت تميل الى التحديات التي تشتمل على الاثارة والمخاطر.

وعندما اكتشفت الرحلات الصحراوية فجأة ،ازادات امامها التحديات وتحولت الى إثارة شخصية استحوذت عليها الى ابعد الحدود. فقد كان عليها اتقان بعض اللغات والعادات ومعرفة اناس جدد، والقيام باستشكافات اثرية وتاريخية، واستخدام تقينات المسح الجغرافي والبحري ورسم الخرائط.

لم يكن هدف مغامراتها اكتساب الشهرة او فتح الابواب امامها لدخول اوساط المجتمع الراقي. فهي طوال حياتها ظلت ترفض الاضواء، كما لم تكن تهتم بالمجتمع الارستقراطي، ولم تستخدم غيرترود، التي تنتمي الى الجيل الثالث من آل بيل، النفوذ والوضع الخاص الذي ورثته في المشاريع التي اقدمت عليها، وكانت المساعدة الوحيدة التي قبلتها هي المساعدة المالية من اسرتها لتمويل الرحلات التي انجزتها، اما في غير ذلك فقد اعتمدت على ذكائها وشجاعتها، وتوقها للعالم والمعرفة.
وعندما ابتعدت امكانية دخولها القفص الزوجي والانجاب، شعرت بحاجة متزايدة لإرضاء ذاتها بالقيام بأعمال اخرى تصرف ذهنها.

وقد ادى ذلك الى بداية ظهور اسمهما في مجال الشؤون الدولية. والى وقت اندلاع الحرب العالمية الاولى فإن شؤون الدولة والشؤون المحلية والدولية يجري التداول فيها على طاولة العشاء والحفلات المسائية وحفلات الاستقبال في السفارات كما في مكاتب الحكومة. وقد تمكنت غيرترود من الدخول الى هذا العالم وباتت تحظى بالاعتراف ضمنه كخبيرة في مجالات اهتماماتها.

فهي في رحلاتها لا تتردد في الاتصال فورا بالقنصليات لتعريف نفسها وزيارة السفراء او المديرين او الولاة في المناطق التي تزورها. فحيثما ذهبت ان كان ذلك في بوخارست او باريس او حمص او انطاكية كانت تعلن عن وصولها. ويعقب ذلك تلقيها دعوات للعشاء او الغداء او حفلات الاستقبال وكانت تدير شؤونها من غرفة من غرف القنصلية بدلا من خيمتها الصغيرة. وتحولها الى شخصية معروفة جعلها تهتم بالمجاملات والتأكد من زيارة المسؤولين.

وعندما كانت غيرترود تتحدث في النقاشات مع بعض الشخصيات البارزة حول مصير المواطنين الارمن الذين يعانون من الاضطهاد او اهمية العقبة كمنفذ لتصدير النفط، او اسباب تمديد خط السكك الحديد الى مكة، او ارسال عشر كتائب الى دمشق لوقف اضطرابات الدروز في حوران كانت الطاولة يسودها الصمت للاصغاء اليها. وكانوا يرددون ما تقوله. ولم تكن غيرترود تحاول الدخول الى عالم الرجال بل انها كانت، في واقع الامر، جزءا من ذلك العالم.

من هي؟

وكشخصية تهتم بالشؤون العامة، كانت لديها رؤيتها الخاصة للأوضاع، فضلا عن آخر المعلومات حول ما يدور، وكانت تسجل في مفكرتها في شكل مختصر ما نقوم بتخزينه في اجهزة الكمبيوتر من معلومات هذه الايام، فكانت تسجل بعض ما يقال في دائرة من الدوائر التي تتحرك ضمنها، وربما تجد في وقت لاحق ان ذلك

قد يضيء او يوضح امرا آخر سمعته في مناسبة اخرى. وكانت تنقل معلوماتها الى صديقها الصحافي شيرول، كما كانت على اتصال عبر الخطابات ووجها لوجه في الوطن او في الخارج مع رجال الدولة في ذلك الزمن. كما كانت لديها ايضا اتصالات مع العديد من العاملين في مجال التنقيب عن الآثار حيث تتبادل معهم الاحاديث حول السياسات الداخلية في الشرق الاوسط. وقد قيل عنها بأنها جاسوسة، وكانت تعتبر وصفها ذلك بأنه امر غريب ومسيء. فهي جامعة للمعلومات وتتبادلها مع الآخرين وقد اتاح لها ذلك الدخول الى دوائر السلطة والنفوذ كشخصية مهمة وبارزة.

خريطة الفرات

وفي عام 1909 عندما شرعت غيرترود في رسم خرائط نهر الفرات، درست المواقع على ضفته لمسافة 450 ميلا قبل وصولها الى منطقة النجف والوجهة التي كانت تقصدها كربلاء. ووجدت قصر الخضير الفخم والبديع في حالة جيدة. وهي لا تنسى دهشتها عندما رأت جدرانه الضخمة وقبابه اول مرة. وفي ذلك الوقت، عندما تأكد لها ان مخططاتها للقصر كانت الاولى، اعتقدت انها اكتشفت قلعة غير معروفة.

وبسبب ما انجزته في مجال الآثار تم تضمين اسم غيرترود في كتاب بروليغومينا، الذي يضم اسماء أشهر الشخصيات العاملة في هذا الحقل، وقد وصفت فيه بانها 'رائدة متميزة في مجال المعمار البيزنطي'. وقد ركزت بعد عام 1909 على منطقة هضبة الأناضول وطور عابدين، وسجلت ما توصلت اليه في كتاب 'كنائس وأديرة طور عابدين' في عام 1913. وقد توصلت غيرترود في تلك الفترة الى وجهة نظر خاصة بها في مجال الآثار، حيث ردت بطريقة منطقية على بعض كتابات عالم الآثار جوزيف ستيرغو يسكي، وهو لم يأخذ عليها هذا الأمر بل دعاها الى كتابة بحث حول طور عابدين للمجلة، التي كان ينشرها وهي مجلة 'اميدا'، كما كتبت مقالا ثانيا حول الموضوع نشر في مجلة معمار الكنائس القديمة وكان المقالان مزودان بالخرائط والصور.

لقاء لورنس

وبعد مغادرتها لمنطقة طور عابدين، غيرت مسار رحلة العودة، حيث زارت الموقع الأثري للعاصمة الجنوبية القديمة للحثيين، وكانت تأمل ان تلتقي هناك براعيهما وصديقها القديم دي يد هوغارث، ولكنه كان قد غادر المكان. ووجدت بدلا من ذلك شابا سيكون جزءا من حياتها في المستقبل كما ستكون جزءا من حياته، ففي 18 ابريل 1914 كتبت عنه تقول 'انه شاب مثير للاهتمام قد يتحول الى رحالة'.

وكان اسم ذلك الشاب هو تي ـ اي ـ لورنس، الذي اعجب بها كما اعجبت به، فقد كتب عن هذه الرحالة المشهورة في خطاب الى والدته وصفها بانها شابة مهذبة في السادسة والثلاثين من عمرها، وكان عمرها في واقع الأمر أربعة وثلاثين عاما، وبأنها ليست جميلة.

'مس بيل' عاشقة الصحراء (5)



'مس بيل' عاشقة الصحراء . انتظرت السعادة طويلا ووجدتها مع ضابط متزوج (5)

ديك وغيرتوود.. حب تبخر

2007/02/14 أحبت .. فألغت رحلاتها الاستكشافية 'لأنني أشعر بالضيق من ترك لندن'
رغم كل انتصاراتها لم تحتل المركز الأول لدى أي رجل
صداقتها وردودها المتعجلة نفرت الرجال منها

انتقل حبيبها إلى ألبانيا فتبخر آخر أمل لها بحياة أسرية
فشل مشروع الحب فقررت العودة إلى الصحراء لتستكشف حائل

في صيف عام 1907 ولدى صدور كتابها الأول، كانت غيرترود تعمل مع السير وليام رامساي في تركيا، حيث كانت هي تتولى التخطيط للمباني والعمل لأكثر من اثنتي عشرة ساعة في اليوم، بينما يتولى هو الاشراف والترجمة، ولا يزال الكتاب الذي يؤرخ لذلك بعنوان 'مائة كنيسة وكنيسة' الذي صدر عام 1909 مرجعية للعمارة البيزنطية في الاناضول، وكانت مكافأة غيرترود على ذلك الحصول على مكانة رفيعة ومصداقية عالية في عالم الهندسة المعمارية يحسدها عليها الكثير من علماء الآثار. وكانت غيرترود تتمتع بالكثير من الميزات كعالمة آثار، ورغبتها في الدخول الى المناطق الخطرة وحرية الحركة وطاقاتها وحماسها.

الحب العظيم

والتقت غيرترود خادمها الذي الذي احبته من مدينة حلب واسمه فتوح في شهر ابريل 1909 قبل ان تتوجه الى اليونان، وهناك تلقت برقية من شقيقتها اليسا تبلغها فيها انها خطبت لشاب اسمه هيربرت ريشمون.

لقد كانت غيرترود في الثامنة والثلاثين من عمرها حين قابلت الميجور تشارلز هوتام مونتاغو من البلاط الملكي الويلزي الذي يعرف لدى اصدقائه بالاسم ريتشارد او 'ديك' الذي اصبح حبها العظيم، لقد كان ريتشارد بطل حرب هادئا حصل على الكثير من الاوسمة لمشاركته في حملة شرق افريقيا في عام 1903 وقبل ذلك، وكان يرتبط بصلة قرابة مع الرحالة والشاعر تشارلز مونتاغو دوتي الذي الف كتاب 'الصحراء العربية' 'ARABIA DESERTA' الذي اصبح مرجعا للرحالة الذين يقصدون الشرق الاوسط، وهو من الكتب التي كانت غيرترود تصطحبها معها في ترحالها.

تلقى ديك دوتي ويلي تعليمه في وينشستر وساند هيرست. وفي عام ،1889 وبينما كان في الحادية والعشرين وهو عمر غيرترود آنذاك ايضا، انضم للخدمة في الجيش البريطاني في مصر والصين وجنوب وشرق افريقيا. وعمل ضابط نقل في الهند، كما خدم في جنوب افريقيا والصومال. واصيب بجروح بالغة في حرب بور ثم اصيب ثانية في الصين، وكان قد تزوج قبل ثلاث سنوات فقط على لقائه بغيرترود. وكانت زوجته المتقلبة المزاج والطموحة هي ارملة اللفتنانت هنري ادامز ويلي الذي كان يعمل في الخدمات الطبية الهندية، وكانت تعرف خارج العائلة باسم جوديت، وانتقل ديك للعمل في السلك الدبلوماسي قنصلا عسكريا بريطانيا في قونية.

وفي هذه الاثناء التقى ديك مصادفة بغيرترود التي رأت فيه ذلك الجندي الشاب الساحر. فحين خرجت لأخذ بريدها، دعتها زوجته الى طعام الغداء في حديقة منزله، ولما عاد الزوج رآها، ولم تصبح محط نظره فقط، بل محط اهتمام الكثيرين الذين كانوا يحاولون التعرف على هذه الرحالة وعالمة اللغة التي كانت قد اصدرت للتو آخر كتاب لها بعنوان: 'الصحراء والبذار' الذي ثار حوله جدل واسع، لقد امتعت الحاضرين في تلك الامسية وفرضت حضورا طاغيا.

وكتبت غيرتورد في إحدى رسائلها الى فلورنسا ان ديك كان مفتونا بالشرق الاوسط ويكن احتراما شديدا للاتراك وكان قد اصطحب زوجته في العام السابق في رحلة الى بغداد والقسطنطينية ومدينة بابل، وقد تأثر روثي ويلي كثيرا بالعالم الاسلامي واعجب بما تحفظه غيرترود من الشعر العربي.

الف كنيسة وكنيسة

التقت ديك وجوديث عدة مرات في قونية وقد ساعداها في الكثير من الاشياء، ولكن رحلة استكشافية كانت مقررة لها مع ديك وزوجته توقفت فجأة بسبب مرض خادمها فتوح الذي تطلب ادخاله الى المستشفى فودعتهما على عجل، ودعتها لزيارتها في رونتون، وبعد ان تعافى فتوح عادت الى البوسفور على متن يخت

تابع للسفارة والتقت هناك بالوزير الاول الذي وصفته ب'الرجل العظيم' و'الذي كان لطيفا معي بشكل يفوق الوصف'.

وقد عادت الى موطنها في شهر اغسطس 1907 ثم عادت بعد ذلك بوقت قصير الى رونتون حيث التقت البروفيسور رامسي الذي وصل الى هناك برفقة زوجته للعمل مع غيرترود في كتاب 'الف كنيسة وكنيسة'.

رسائل دافئة

وبدأ يتسلل الدفء الى المراسلات بينهما في وقت كانت تتنقل فيه بين دول المشرق في واحدة من اهم رحلاتها الاستكشافية وابرز مشروعاتها الاثرية، ومن بينهما تصوير وتقييم قصر الخضير واديس ابابا حيث كان ديك قنصلا، وفي عام 1912 وصل الى لندن وذلك من اجل مقابلة المدير العام لمنظمة الصليب الاحمر الدولي، وكان يقيم في شقته القديمة التي تعود الى ما قبل زواجه في شارع هاف مون، كما يفعل دائما، حين لا تكون زوجته معه، ومن الممكن ان يكون ديك وغيرترود قد التقيا مرة او مرتين في لندن خلال خمس سنوات من لقائهما الاول.

وقد قضت في لندن فترة من امتع اوقات حياتها حيث التقت بالدائرة الاوسع من الاصدقاء والاقارب، واتاحت لها هذه الاقامة الفرصة لاستيعاب ذلك الجندي القلق الى محيطها، وجعلته يتعرف على مجموعة المقربين منها. وكان ذلك الجندي مثقفا وذكيا واكثر تذوقا للموسيقى واكثر نهما للقراءة وميلا للرسم من بقية اقرانه من الجنود. وكان اصدقاؤه يعلمون ان زواجه لم يكن سعيدا.

واخذ ديك وغيرترود يذهبان مع مجموعة الاصدقاء الى المسرحيات وحفلات الموسيقى والمتاحف والمعارض ويحضران الامسيات الثقافية والادبية، وحدث ان جاء ذات يوم لحضور احدى محاضراتها التي كانت تلقيها بثقة وبشيء من روح الفكاهة. وكانت تحظى بإعجاب الجمهور، وفي جولة مشي في احد المنتزهات في طريقهما الى المنزل او احد المطاعم في منطقة ويست اند، كان ويلي يضع يده على كتف غيرترود وكانت تسمع اصوات ضحكاتهما تعلو بينما يدور بينهما حوار عميق، مما لفت انظار المرافقين الذين اخذوا ينظرون اليهما وقد تأخرا عن الركب. وكان هذا اللقاء يؤسس العلاقة حميمية بينها وبين ديك.

ولم تكن مستمتعة بهذه العلاقة فحسب، بل كانت العلاقة الاهم في حياتها. لقد انتظرت طويلا لمثل هذه السعادة، وفي غمرة شعورها بالسعادة الى جانب ديك نسيت وجود زوجته جوديت تماما.

السعادة غير الباقية

ولم تدم السعادة التي شعرت بها الى الابد، فقد وصلت جوديت الى لندن فعادت غيرترود الى يوركشاير وعكفت على الدراسة في العمارة وتنسيق حديقة منزلها، وقضت معظم اوقات خريف عام 1913 في الصيد وتشغل نفسها في اي شيء لحين رؤيته مرة اخرى.

كانت تمر في تلك الاثناء بمزاج متقلب فتراها اليوم سعيدة وغدا حزينة، لكن اصبحت هي وديك مهمان لبعضهما، لكن لم يغب عن بالها السؤال دائما حول كيفية تحسين وضعها، وبدأت تفكر في الطلب من ديك ان يترك زوجته جوديت كي يتزوجها، لكن والديها كانا يعارضان ذلك، لقد ظلت الكآبة والوحدة ترتسمان على حياتها في كل لحظة تعيشها بعيدا عنه وانتظارا لموعد اللقاء التالي.

كان عليها مواجهة الحقيقة المرة، انه على الرغم من كل الانتصارات التي حققتها في حياتها فانها لم تحتل المركز الاول لدى اي رجل، الا - ربما - والدها، فهي تدرك ان طريقتها الصدامية وردودها المتعجلة نفرت منها الكثير من الرجال، ولكنها لم تعبأ بذلك، فالرجل الذي يخشاها لا يمكن ان يكون زوجا صالحا لها. وكلما كانت تتقدم في السن وتكبر انجازاتها، تصبح متطلباتها اصعب، بل يتعذر تلبيتها، لقد كانت تريد الارتباط برجل وسيم وذكي وذي انجازات تفوق ما حققته هي، كما اردته شجاعا وصيادا ماهرا وحافظا للشعر وقارئا لكتب

الحضارة المهمة ويتحدث العديد من اللغات ويتذوق المسرح والجمال، وان تكون له معرفة بكبار السياسيين ورجال الدولة الذين تعرفهم، لقد كانت تبحث عن بطل لترتبط به، ولم لا؟ فقد كانت هي بطلة حقيقية، وشعرت انه ما من شك في ان دوتي ويلي هو الرجل المناسب لها.

كانت هناك امرأة في المنزل، لم يخب ظنها، انها ماري ديلير التي كانت تعمل معها في المنزل التي لاحظت بدء غيرترود الاهتمام بمظهرها وملابسها، عندما جاء ديك الى رونتوني في زيارة استمرت عدة ايام في شهر يوليو ،1913 وحضرا معا حفل عشاء ساهرا ساده الفرح والضجيج حتى ساعة متأخرة من الليل واخذ المدعوون ينسحبون فرادى وازواجا ويصعدون الى غرفهم، وجلس ديك وغيرترود الى جانب المدفأة يتجاذبان اطراف الحديث ويتبادلان النظرات.

لقد كان ذلك اشبه بالحلم بالنسبة لها، فقد كانت في غاية السعادة اذ عثرت على الرجل الذي تحبه، وها هي العائلة التي تحبها والمنزل الذي تألفه، وكان في خاطرها سؤال عن الليلة المقبلة، فربما اتاحت له الفرصة لمعرفة غرفتها، واخيرا ذهبت الى النوم، وبعد ان افردت شعرها سمعت صوت طرق خفيف على الباب ففتحت له الباب، وجلسا قليلا، حيث وضع يديه حول خصرها واخذ قلبها ينبض بسرعة، ثم جلست على طرف السرير وهي تشعر بعدم الارتياح، وشرعا يتبادلان الاحاديث التي كانت تنخفض احيانا الى درجة الهمس، واخذت تعبر له عن مشاعرها وسعادتها بالتعرف اليه وشعورها بالحزن لانها وجدته متزوجا، لقد ضمها اليه بحرارة ثم اضطجعا على السرير، فابلغته انها عذراء، لقد ابدى مشاعره الحميمة تجاهها بلا حدود وقبلها، ولكن عندما اقترب منها اكثر فأكثر شعرت بالرعب وهمست في اذنه بكلمة 'لا'، فتوقف في الحال، وحاول ان يهدئ من روعها ويوقف انهمار دموعها على خديها لعدة دقائق ثم فتح الباب وانصرف.

في اليوم التالي، لم تتمكن من التحدث اليه طويلا قبل مغادرته في الثالث عشر من اغسطس، حيث كتب لها رسالة شكر ووضعها على طاولة قاعة الاستقبال، فالتقطتها وصعدت مسرعة الى غرفتها لتقرأها على انفراد وجاء في الرسالة:

عزيزتي غيرترود:
'أشعر بسعادة غامرة ان دعوتني الى رونتون حيث استمتعت بالمكان والناس والحديقة والغابات وكل شيء، اننا جميعا نعيش في حالة من الوحدة، انني اشعر بحاجة لكتابة شيء لك يبرهن على انني فخور بأن اكون صديقا لك، انني في رغبة متواصلة لرؤيتك لأطول وقت ممكن.. حظا سعيدا'.
المخلص لك دائما

لقد قرأت الرسالة مرات ومرات، واخذت تعصر كلماتها حتى آخر معنى ممكن، لقد شعرت بالإهانة لبرودة الرسالة، وحاولت التعويض من خلال التركيز على جملة 'اننا نعيش جميعا فعلا حالة من الوحدة' وفكرت ان ذلك لا بد وانه يعكس عدم رضاه عن زواجه الحالي، لكن هذا ليس بالأمر الجديد عليها. لقد عاشت غيرترود الحب مرتين في حايتها، لكن هذه المرة تشربت الحب حتى اعماق روحها.

وعندما عاد ديك الى لندن وجد مجموعة من الرسائل قد وصلته من غيرترود، ولا بد انه امتلأ غرورا بسبب ما توليه له هذه المرأة المحترمة من الاهتمام، ولم يكن يرغب في ان يخسر صداقتها، ولكن في حين ان رسائلها كانت تتحدث عن الامور التي تؤرقها، فإن ردوده لم تتضمن التزاما واضحا.

ثم جاءتها الصدمة في رسالة من ناديه تبلغها انه قبل بتولي منصب في البانيا لدى لجنة الحدود الدولية، لكن تواصلها معه عبر الرسائل كان بمنزلة خط الحياة بالنسبة لها، فقد كانت تقرأ الرسالة المرة تلو المرة حتى تحفظها عن ظهر قلب، بيد انها بدأت تتساءل ما اذا كان يكتب لها من منطلق الشفقة ام لا.

لقد عبرت له عن بؤسها، وحاول تهدئتها بكلمات الغزل والحب الذي كانت مبتدئة فيه، وربما ارتكبت بعض الاخطاء بإظهار عواطفها تجاهه في وقت مبكر جدا، وبحثه على الانفصال عن زوجته.

وبعد وقت قصير ابلغها في احدى رسائله انه سيقوم بحرق رسائلها 'لأن الفرد قد يموت في اي لحظة وهذه الرسائل تخصني وحدي..'، فشعرت ان العلاقة معه وصلت الى النهاية، ثم جاءتها رسالة اخرى يقول فيها انه لن يتمكن من الكتابة اليها بعد اليوم وانه سيتذكر دائما، الأوقات الجميلة التي قضياها معا 'وانني سأكون صديقا لك دائما'.
لقد تبخر املها الاخير بالسعادة، حين قفل ديك وجوديث الى البانيا، وتقبلت حقيقة انه لم يعد هناك امل باستمرار العلاقة معه او الاتصال به مباشرة بعد اليوم.
لقد بدا وكأنه لم تعد لها اية متعة في شيء من هذه الحياة، ولم يعد يهمها ان تحيا او تموت، لقد كانت ابواب الحياة مشرعة على مصاريعها امامها، ولم تكن تسمع كلمة 'لا' ابدا، ولكنها الآن تسمعها وهي في امس الحاجة الى كلمة 'نعم'.
وبالشجاعة ذاتها، التي امتلكتها طوال حياتها، قررت غيرترود ان تضع حدا نهائيا للتأرجح في حياتها بين الرجاء واليأس، مع انها لا تزال تكن مشاعر الحب لديك مهما طال الزمن وبعد المكان، وقررت العودة الى الصحراء والعمل في مشروع ينطوي على الكثير من المخاطر وادى الى موت كثير من الرحالة من قبلها، وقررت ان تسلك طريقا وعرا من بين القبائل المتناحرة الى حائل، وهي المغامرة التي قتل فيها كثيرون.
ديك وغيرتوود.. حب تبخر

'مس بيل' عاشقة الصحراء (6)

غيرترود إمرأة مثقفة لكنها عانس
عشيق 'بيل' لم يتزوجها لأن زوجته هددت بالانتحار

غيرترود ترتدي قميص وتنورة من الكتان الابيض، وهي عاشقة للزهور والنباتات، وقد حولت حديقة بيت الاسرة ال

بعد خيبة الأمل من الحبيب، غادرت غيرترود لندن شرقا بعد ستة اسابيع على مغادرة دوتي ويلي، وقبل ان تغادر ارسلت اليه مجموعة من كتبها ومقالاتها، فجاء رده باردا وطلب منها ان تبعث برسائلها الى جوديث (زوجته) وليس اليه.

حين كان في لندن، عزم ديك على وضع حد للعلاقة مع غيرترود، الا انه لم يمض عليه شهر واحد في البانيا، حتى راوده الحنين اليها، واعترف لها في احدى رسائله 'نعم انا مغرم بك' ولم تطل اقامته في البانيا، وعاد الى لندن لحضور احتفالات اعياد الميلاد.

وبعد وقت قصير كتب يبلغها انه متوجه الى اديس ابابا وحيدا هذه المرة، 'لان المنطقة تسودها الفوضى'. وفي ذلك الوقت كانت تستعد للانطلاق الى الجزء الاكثر خطورة في رحلتها، وبدأت في تأليف الكتاب الذي ستكتبه خصيصا لديك لتبعث به اليه الى اديس ابابا، مع رسائلها التي لم تعد تخشى ان تقع في يد جوديت. وكان اكثر ما يسعدها في تلك الايام، التأكد من ان الصلة العاطفية بينهما تزداد قوة، على الرغم من عدم تغير اي شيء جوهري.

اخذت كتاباته لها تتسم بمزيد من الدفء والحميمية، وكتب لها ذات مرة رسالة يقول فيها 'انت مليكتي الصحراوية وقلبي معك'. وكان يكتب لها بشكل يومي او شبه يومي. وكانت تذكره دائما ان ما ترغب به هو الزواج وانجاب الاطفال منه، ويرد عليها دائما بان مثل هذا الطلب يملأه فخرا وسعادة، لكن دون خطوة عملية في هذا الاتجاه.

وفي نهاية يناير ،1914 زار ديك، هيو مرة اخرى ثم قفل عائدا الى اديس ابابا ثانية، فكتب اليها يسمعها

الكلام، الذي تمنت ان تسمعه منه طوال الفترة الماضية، فقال في رسالته 'لقد كنت تريدين ان تسمعي مني ان اقول انني احبك، وهانذا اقول لك احبك'.

الحرب العالمية

وحين اندلعت الحرب، كانت في لندن فطلبت الانضمام للعمل في احد مراكز الاسعاف لمساعدة المصابين وكانت تعمل ما بين 8 - 9 ساعات يوميا ثم تذهب الى المطعم لتناول الطعام ثم تأخذ وقتا للكتابة الى ديك ولعائلتها قبل ان تخلد الى النوم، فاصبحت رسائله الآن اكثر حيميمية من اي وقت مضى، وكذلك رسائلها.

ولم يكن ديك وغيرترود يختلفان - بشكل او بآخر - عن الكثير من الازواج في وقت الحرب الذين تزوجوا في غمرة الحرب وتباعدوا حين غادر الزوج الى الجبهة وبعد عودته عادا زوجين او غريبين عن بعضهما تماما، لان ظروف الحرب فرضت شكلا متعجلا من العلاقة بعيدا عن التدرج الموضوعي الذي يتوجه بالزواج. المهم ان بقاءهما في لندن استمر لمدة اربعة ايام واربع ليال فقط قبل ان يضطر للعودة الى الجبهة.

سر الامتناع عن الزواج

وكشفت رسالة كتبها ديك من مقر القوة الاستكشافية في البحر المتوسط الى والدة زوجته جوديت في العشرين من ابريل 1915 وقبل ستة ايام من مقتله في معركة غاليبولي عن سر تمنع ديك من الزواج من غيرترود، وهو خوفه على الصحة النفسية والعقلية لزوجته جوديت فيما لو علمت بزواجه عن غيرترود.

وبالطبع، لم يكن ديك يقول الحقيقة، حين أبلغ والدة زوجته انه لم يتمكن من مقابلة أحد في لندن. والاهم من ذلك، ان الرسالة سلطت مزيدا من الضوء على شخصيته وعلى مواقفه من المرأتين ومن حياته. فهي تعني ان الرسائل التي لم تتمكن غيرترود من فهمها والتي يعبر فيها عن حبه لها من جهة وتفاديه في الوقت ذاته تقديم اي التزام، تفتقد الى المصداقية بسبب عدم استقرار زوجته ومسؤوليته المستمرة عن العناية بها، فربما كان يرى ان زوجته لن تتمكن من التغلب على متاعبها بعيدا عنه، بل انها في الواقع، كانت تهدد بالانتحار اذا تخلى عنها وتزوج غيرترود.

مأزق رهيب

وما من شك في انه كان يحب غيرترود، لكنه وجد نفسه في مأزق رهيب، لقد كان قادرا على رفع معنويات زوجته وتعزيز معاناة غيرترود المستمرة وكان قادرا ايضا، على اسعاد غيرترود وتعميق معاناة زوجته جوديت. وكان هذا الصراع يؤرقه.

الرصاصة القاتلة

وقبل يوم من مقتله في المعركة للسيطرة على احدى القلاع التركية، جمع كل رسائل غيرترود ورد عليها في رسالة واحدة. ويقول احد زملائه الناجين من المعركة ان 'ديك كان هادئا وصامتا على غير العادة، وكأنه كان يدرك ان المنية قد دنت'. لقد اصيب ديك برصاصة في رأسه ادت الى مصرعه على الفور، ودفن في مكان اصابته. ومازال قبره هناك حتى اليوم. وقد ترك موته كثيرا من الاسئلة بلا اجابات، لماذا لم يحمل مسدسه؟ وهل كان غير راغب في مهاجمة اصدقائه الاتراك؟ لدرجة استعداده للموت على ان يدافع عن نفسه؟ هل اقدم على ما يشبه الانتحار؟ هل كان يفضل الموت على ايذاء مشاعر اي من المرأتين؟

وحين علمت غيرترود نبأ مقتله كتبت في مفكرتها 'لقد كانت الصدمة رهيبة وبدا لي وكأن قلبي قد تمزق'. وعلمت غيرترود بالنبأ بطريقة اكثر إثارة للصدمة. لقد واصلت الكتابة اليه لان احدا لم يبلغها ما الذي حدث له. وحدث ان كانت تحضر حفل عشاء يجمع الاصدقاء في لندن، حتى ذكر احدهم الذي لم يكن يعلم بعلاقتها بديك،

نبأ مقتله، واخذوا يتحدثون عن شجاعته.. فاستأذنت بترك الحفل بهدوء، واتجهت الى منزل اختها غير الشقيقة ايلسا التي اصبحت الآن ، ليدي ريشموند، وحين فتحت الباب لاختها ورأتها على تلك الحال، فكرت ان ابنها هو الذي قتل، فانهارت في البكاء ووجدت غيرترود صعوبة في تمالك نفسها، كي تقنعها ان القتيل ليس ابنها موريس.

وفي نهاية عام 1915 زارت غيرترود قبر ديك، حيث نزلت من احد القوارب برفقة عدد من الجنود ولم تتحدث مع احد ومكثت لبعض الوقت ثم رجعت الى القارب ثانية وانطلقت نحو البحر. وفي السابع عشر من نوفمبر كانت تستعد للابحار على متن السفينة Ship Arabia الى بورسعيد، في صبيحة العشرين من نوفمبر انطلقت السفينة باتجاه مرسيليا التي كانت محطتها الاولى. وقد كتبت رسالتها الاولى من القاهرة في الثلاثين من نوفمبر، وكان ذلك على ما يبدو - يوم وصولها.

وتحدثت في الرسالة عن 'رحلة رهيبة' بسبب العواصف المستمرة طوال الرحلة'، ووصلت الى بورسعيد ليلا، وكان ليونارد وولي يتولى رئاسة مكتب الاستخبارات في بورسعيد، وكان الكابتن هال، شقيق الرجل الذي ارسلها الى القاهرة، مسؤولا عن سكة الحديد، ولكن السؤال يبقى، حول ما اذا كانت قد استقلت سفينة تجارية واتجهت الى الدردنيل في تركيا لزيارة قبر ديك؟ فأغلب الظن انها فعلت ذلك.

لقد كان لديك دوتي ويلي تأثير كبير شكل نقطة تحول في حياة غيرترود حتى قبل وفاته. وانه في نهاية صيف عام 1913 وبعد اسابيع قليلة من زيارته الى روتون، حرق خطاباتها وسافر الى البانيا مع جوديث لتولي وظيفته الجديدة في لجنة الحدود الدولية.

وعلاقتهما التي لم تكلل بالزواج منحتها اياما من السعادة التي لم تشعر بها من قبل، وعند بلوغها سن الخامسة والاربعين ازعجها ادراكها انها بالرغم من انجازاتها التي يعرفها العالم، فإن المجتمع الذي تعيش وسطه في لندن ويوركشاير ظل متمسكا بتقاليده المحافظة وينظر اليها على انها عانس متقدمة في السن ومثقفة تثير الخوف، فبعد ثلاثة عشر عاما من قولها انها اصبحت شخصية معروفة، الا انها خارج الدائرة الكبيرة لاسرتها واصدقائها، مازال ينظر اليها على انها عانس غريبة الاطوار وان كانت انيقة.

اما ديك، فقد كان مدركا أهمية رحلاتها الاستكشافية ومعرفتها لمنطقة الشرق الاوسط، اما الآن وبعد مغادرته الى البانيا، اصبحت غيرترود تشعر بالوحدة واسرتها لم تكن راضية عن علاقتها مع رجل متزوج، ولم يكن اصدقاؤها يعرفون هذا الامر.
وظلت غيرترود تأمل ربما حدوث تغيير في وضعها، وذلك حتى مغادرة ديك الى البانيا وبعدها قررت التحرك، فقد قررت الهروب عن طريق الرحلات مرة اخرى من دائرة الاصدقاء والاسرة، وكانت دمشق محطة الانطلاق ولم تكن تهتم فعلا بالوجهة التي قد تذهب اليها، بل كان همها ان تغادر وكانت تفكر في رحلة كبرى تأخذها بعيدا لفترة طويلة ولم تكن تهتم حينها ايضا ما إذا كانت سترجع البتة.

لقد تغير مزاجها كثيرا في شهر اغسطس من عام 1913، فقد قررت اخذ الكثير من الاغراض هذه المرة استعدادا لكل شيء. بدأت الرحلة الجديدة مع ادراكها لما تتطلبه الرحلة من قوة وجهد بدني، والصعوبات الجغرافية التي قد تواجهها.

وباختيارها حائل فإنها تكون قد اختارت احدى اكثر المناطق التي تعاني من عدم الاستقرار والاقل شهرة في العالم، وكان هدف الرحلة هو توفير معلومات لوزارة الخارجية، فقد تزايدت احتمالات الحرب مع المانيا وبدأ اهتمام الحكومة البريطانية يتجه نحو معرفة الوضع السياسي في وسط الجزيرة العربية، حيث كانت المانيا تعزز صلاتها مع الامبراطورية العثمانية عن طريق تدريب جيشها وتزويده بالاسلحة، كما كانت تعمل في بناء خطوط السكك الحديدية.

قوتان

كانت هناك عداوة ظلت قائمة لمدة من الزمن فيما بين القوتين الرئيسيتين في وسط الجزيرة العربية، اي آل سعود وآل الرشيد، وقد قام الاثنان بدور حيوي في تاريخ شبه الجزيرة العربية، وكانت بريطانيا تزود حاكم نجد ذا الشخصية الكارزمية عبدالعزيز آل سعود بالاسلحة والاموال، وكان عبدالعزيز يتحرك من الرياض، وبدأ نفوذه يتسع، حيث استطاع استعادة الاراضي التي فقدها اسلافه، وكانت الحكومة العثمانية تساند الاسرة المنافسة، اي آل رشيد المنتمين الى الشمر التي تعد اكثر القبائل قسوة في الجزيرة العربية، وقد عزم آل سعود على توجيه ضربة لآل رشيد، وتعتبر حائل معقل آل رشيد الذي قررت غيرترود زيارته اولا، وكانت لديها في تلك المرحلة خطة اخرى هي السفر الى العمق جنوبا باتجاه الرياض لجمع المزيد من المعلومات التي قد تكون لها اهمية بالنسبة لوزارة الخارجية، وكان الكاتب وليام شكسبير متوجها الى الرياض في الوقت نفسه تقريبا الذي اختارته غيرترود للتوجه اليها. وقد وجد نفسه في خضم معركة دارت بين آل سعود وآل رشيد بعد خمسة عشر شهرا من ذلك حيث لقي حتفه.

كانت الرقعة التي تود غيرترود تغطيتها غريبة. فقد خططت للسفر مسافة الف وستمائة ميل على ظهور الجمال، حيث تأخذ مسارا دائريا الى الجنوب من دمشق وبعدها الى الشرق عبر الجزء الشمالي لشبه الجزيرة العربية، اي المنطقة التي يحدها البحر الاحمر والخليج وبحر العرب. ومن الناحيتين الجغرافية والسياسية قد تشكل هذه الرحلة عناء لاكثر الرحالة خبرة ودراية. ففي رحلة استكشافية مشابهة اصاب شارلز هوبر الذي يعتبر من ابرز الرحالة في المناطق العربية، اليأس وعاد على اعقابه حيث اغتيل على يد الادلاء ممن كانوا يرافقونه، اما الرحالة النمساوي بارون نولده فقد انتحر. واصبح الوصول الى حائل يشكل التحدي الاكبر بالنسبة لرحالة الصحراء. فالتوغل في تلك المناطق القاحلة ظل يمثل خطورة حتى في حالة كسب ود البدو. وقد خططت غيرترود للسفر في ساحة تصارع آل سعود وآل رشيد في وقت كانت الاحداث فيه تتحرك باتجاه الذروة.

وسيأخذها الجزء الاول من الرحلة الى الجنوب نحو وسط الجزيرة العربية وعبر المناطق الشاسعة المرتفعة في نجد التي تمتد من سوريا في الشمال الى اليمن في الجنوب. ثم تعبر بعدها رمال صحراء النفود حيث تصبح اول امرأة غربية تعبر ذلك الجزء من الصحراء وتترك النفود عبر المنطقة الصخرية ذات السواد الداكن وتنزل بعدها الى الهضبة الشاسعة التي تقع في وسطها مدينة حائل.

وكانت غيرترود قد فكرت في هذه الرحلة ثم تخلت عن الفكرة وتركتها جانبا لفترة طويلة ولكنها اصبحت الآن رحالة ذات خبرة في مجال الرحلات الصحراوية. وقد رغبت هذه المرة ولأسباب شخصية، ليس فقط في الهروب، ولكن لمواجهة تحد لاختبار قدراتها بالكامل. مغامرة تثير اعجاب ديك دوتي وايلي، وقلقه عليها، وتركز انتباهه عليها. فقد كانت ترغب في اعجابه حتى ان لم تعد اليه.

وابلغت والديها بانها ستترك مسألة الوجهة التي ستذهب اليها دون تحديد غير ان ديفيد هوغارث كتب لها ليذكرها بان لديها اسبابا تدعوها لادراك ان مشروعهما لن يحظى بالتصديق لا من قبل السلطات العثمانية او كبير ممثلي بريطانيا العظمى في القسطنطينية (وهو صديق لاسرة بيل)، ونصحها بشدة بعدم القيام بالرحلة عندما كان يعمل في وزارة الخارجية. وقبل اربع سنوات ماضية كان صديقها ريتشموند ريتش قد رتب لهما لقاء مع الممثل المقيم للحكومة الهندية في الخليج عندما كان في انكلترا وذلك لمناقشة خط سيرها الى حائل وكان الممثل المقيم هو اللفتنانت كولونيل بيرسي كوكس وهو اسم سيعني لها الكثير في وقت لاحق. وهو حذرها ايضا من القيام بتلك الرحلة وبالتحديد حذرها من الطريق الجنوبي.



مس بيل' عاشقة الصحراء7

أعجبت بلورنس لكنها كانت أكثر شهرة منه
عالجت مصابا بالغرغرينا.. وسمعت حكايات الجن وعيونها الطولية

حريم الشيخ حرب الدوانشة الذي يرفع طرف الخيمة حتى تتمكن غيرترود من تصويرهن

في 27 نوفمبر 1913 وصلت غيرترود الى دمشق قادمة من بيروت. ولانها كانت تحمل الكثير من الاغراض لم تتمكن من زيارة تي - اي لورنس الذي كان يتجسس على الالمان.

نزلت غيرترود في فندق دمشق بالاس المفضل لديها وقد لفت وجودها هناك الانظار. فقد كانت من اشهر الرحالة البريطانيين في تلك الفترة وكان كتابها الجديد وهو السادس لها 'قصر ومسجد الخضير' على وشك الصدور. وقد اثار اهتمام علماء الآثار والمؤرخين في الشرق الاوسط ولم يكن الناس قد سمعوا بلورنس الذي لم تطغ شهرته عليها الا بحلول عام 1920 وكان ذلك بسبب السيرة المثيرة التي ألفها.

الرفيق فتوح

كانت قد كتبت من انكلترا تطلب فتوح، رفيقها في رحلتها السابقة، ان يقابلها في دمشق. وقد اسعدها ان تراه مرة اخرى، حيث وصل في اليوم التالي من حلب. وكما في السابق سيكون فتوح مسؤولا عن توفير الراحة الشخصية لها اثناء السفر، اي نصب خيمتها وتحضير ماء استحمامها وترتيب مكان نومها واغراضها واعداد طاولة طعامها.

تنظيم القوافل

كانت غيرترود تعرف كيفية تنظيم القوافل، ورحلتها الى نجد كانت في حاجة الى اعداد دقيق. فقد كانت في حاجة الى 17 جملا يكلف الواحد منها في المتوسط 13 جنيها استرلينيا مع السرج واللجام.وقد قدرت انها قد تحتاج الى 50 جنيها للطعام، ومثلها للهدايا. واتبعت نصيحة احد الاصدقاء باخذ ثمانين جنيها معها، واعطاء وكيل الرشيد مائتي جنيه في شكل خطاب ائتمان يسمح لها سحب المبلغ في حائل.

وبعد احتساب اجمالي النفقات وجدت انها تصل الى 601 جنيه استرليني. وهي تحتاج الى ضعف هذا المبلغ، وطلبت من والدها ارسال المبلغ الاضافي بواسطة التلغراف عن طريق البنك العثماني.في يوم الثلاثاء 16 ديسمبر 1391 بدأت رحلتها عبر بساتين الخوخ والزيتون.

وفي الطريق سمعت اشاعات تقول ان الحكومة العثمانية ارسلت سبعين جملا محملة بالاسلحة الى ابن رشيد لمساعدته في حربه مع ابن سعود.. ووصلت في يوم عيد الميلاد الى برقع التي توجد بها قلعة رومانية قديمة. وكانت درجة الحرارة منخفضة للغاية وبعدها وجدت القافلة نفسها في مضارب قبيلة تؤيد ابن سعود وكانت تعتبر من اكبر التجمعات الصحراوية حيث كانت مضاربها تحتوي على ما بين خمسة الى ستة آلاف خيمة.

لم تخل رحلتها من المتاعب. فقد اعترضها جمع من القرويين الغاضبين ومنعوها من رسم مخطط لاحدى القلاع القديمة كما طالبها قرويون آخرون بان تعالج شخصا يعاني من الغرغرينا. وعند الجلوس ليلا حول النار كان مرافقوها من الرجال يتحدثون عن الجن الذين يتنقلون مع المسافر في كل مكان. ووصفوهم بان عيونهم طولية الشكل وليست افقية.

نصف المسافة

وفي 15 يناير ارسلت معظم افراد طاقمها لكي يتقدموا عليها وذهبت هي للبحث عن ثلاثة من سائقي الجمال بعد مغادرة سائقي الجمال الثلاثة من عشيرة عقيل لقافلتها كما توقفت لفترة قصيرة في محطة زيزا لقضاء بعض المهام.

وقد اكملت حينها 54 يوما في رحلتها تلك ولكنها قطعت فقط خمس المسافة الى حائل واصبح امامها طريق

طويل ومجهول غير انها بدأت تشعر بالهدوء بعد ان نالت حريتها في الحركة والتنقل ووقعت تحت تأثير سحر الصحراء. وباتت تدرك انها تسير في طريق اللاعودة بعد التحذيرات التي تلقتها من حكومة بلادها التي تخلت عن تأمين حمايتها وحملتها مسؤولية المخاطر. وبعد الانطلاق من دمشق قطعت مسافة تصل الى قرابة مائتي ميل جنوبا إلى زيزا ومن هناك توجهت بقافلتها نحو الجنوب الشرقي الى حائل. ومن هناك كانت تنوي التقدم باتجاه الشمال الشرقي الى بغداد قبل التنقل عبر الصحراء السورية من الشرق الى الغرب عائدة الى دمشق حيث كانت بداية رحلتها.

مع لورنس

وشاركت غيرترود لورنس اعجابا يرقى حد الادمان بالبدو وسحرهم الخاص. فقد اعجب الاثنان باستقلاليتهم وحريتهم في الحركة وقوة تحملهم مما يجعل تلك القبائل الرحل اشبه بارستقراطية الصحراء. وربما تضمن ذلك ان الاثنين كانا ينجذبان للقوة البدنية للبدوي المقاتل. فقد كان البدو يرفضون كل سلطة وكانت قواعد السلوك التي يلتزمون بها هي قواعدهم الخاصة. فهم لم يستجيبوا لاغراءات الاتراك كما لم يخضعوا للنفوذ البريطاني. فقد كان هنالك حسب قول الأكاديمي البيرت حوراني الخبير في شؤون الشرق الأوسط ان لدى البدو 'شعورا بأن لديهم حرية ونبلا وشرفا مما يفتقر إليه الفلاحون والتجار وأصحاب المهن اليدوية'.

'وأنا ايضا شيخة'

وأثناء رحلاتها كانت غير ترود تذهب مباشرة إلى أي شيخ من الشيوخ يكون في المنطقة حيث تقدم إليه التحية بلغة عربية تتميز بالطلاقة وبكل الاحترام والتوقير التقليدي، وكانت تدفع مقابل أن يخصص لها مرافقا كما يفعل الرحالة من الذكور وذلك لإقناع الشيخ بأنها مساوية للرجل. وكان عليها أيضا أن تعطيه انطباعا حول أهميتها وثروتها وذلك في البداية بتقديم الهدايا إليه. والهدايا التي تقدمها كانت ترتبها بعناية حسب الأهمية غير انها أحيانا كانت تخطئ الحكم. فبعد ان أهدت أحد صغار الشيوخ ثوبا من الحرير كتبت في مذكراتها تقول 'أخشى أنه رأى ان الهدية غير كافية'. وما بين الأغراض التي كانت تحملها كهدايا قطع من الحرير، وأغطية قطنية للرأس (عمائم وغتر) والقهوة والسكر وبعض البنادق، ومناظير زايس التي اشترت كمية كبيرة منها من لندن. وبما ان الشيخ يحتل وضعا خاصا في التراتبية العشائرية كان عليها أن توضح بجلاء انها تنتمي إلى أسرة ذات وضع خاص مثله. وكانت تصف والدها هيو الصناعي الرائد في روايتها للبدو بأنه من كبار شيوخ شمال إنكلترا، فقد كان من المهم بالنسبة لها في الصحراء ان يدرك الناس انها تنتمي إلى أسرة عريقة.

غامضة ومستقلة

ولم تكن غير ترود امرأة كتلك التي اعتاد عليها الشيوخ. فأولا وقبل كل شيء كانت تركب الفرس أو الجمل كما يركبه الرجال وليس في الهودج كما حال نساء الشيوخ. وكان الانطباع عنها انها سيدة غامضة ومستقلة وثرية، وذات نفوذ وقد تكون من أسرة ملكية، وهي بالتأكيد ليست عدوة ومع ارتباطاتها قد تشكل حليفا للشيخ. كما انها تتحدث لغته، وتروي الكثير من الشعر ربما أكثر منه وضمت الثقافة الشفوية السائدة العشائر الرحل حيث يتم حفظ القصائد عن ظهر قلب كانت تثير الإعجاب عند القائها بعد العشاء وفي خيمة في الصحراء لقصيدة كاملة التي قد يكون الشيخ يحفظ بيتا أو بيتين منها وغالبا ما تكون من قصائد الشعر الجاهلي. والأمر المهم الآخر هو انه دائما ما تكون لديها بعض النميمة ونقل معلومات عن تنقل القبائل ومصادر المياه التي مرت بها أثناء رحلتها.

في المؤخرة

لم تكن هنالك أي معالم للطريق على الأرض. وكانت غير ترود تسير في مؤخرة القافلة حيث تتابع خط مسيرة

القافلة باستخدام بوصلة وتوجه سيرها. وكان كل يوم يمر يبعدها من دائرة النفوذ البريطاني وغالبا ما كانت تسجل في مذكراتها شعور القلق لدى أفراد القافلة من إمكان التعرض لغزو عصابات النهب.

وفي بحثهم عن الماء بدأت غيرترود في دراسة خرائطها حيث وجدت ان هنالك بئرا في التلال الشرقية وبعد مسيرة ساعتين باتجاه الشرق شاهدوا آثار الدخان تتصاعد من التلال. وقد أثار هذا الأمر ريبتهم إذ انه قد يكون آثار غزوة ولكنهم على أي حال توجهوا نحو الدخان واطلوا على المكان من تلة صغيرة ووجدوا في الأسفل قرية. وبدأت الجمال التي اشتمت رائحة الماء في إسراع الخطى وشربت حتى امتلأت بطونها. وعرفوا عن طريق الرعاة ان عددا كبيرا من الحويطات موجود منها في مكان قريب مع شيخهم عودة أبو طي.

مع الدوانشة

وقضوا الليل في الطريق وفي صباح اليوم التالي وصلوا إلى خيام الشيخ حرب الدوانشة التي كانت موزعة في منحدرات التلال الصخرية المرتفعة كما في الوادي اسفل التلال. وقد استقبلها الشيخ حرب الكبير في السن بترحاب، وذبح شاة تكريما لها، وكان اليوم هو التاسع والعشرون من يناير، اي انها امضت 13 يوما منذ مغادرة زيزا. واغتسلت وارتدت افضل ثيابها وذهبت لزيارة الشيخ حرب في خيمته، حيث استمتعت بوجبة عشاء رائعة. وأثناء تناول الطعام جاء ضيف بارز آخر هو محمد ابوطيء ابن عم الشيخ عودة الذي اعجبت به غيرترود ووجدته رجلا بكل معاني الكلمة. وقد حكوا لها عن قسوته في محاربة الاعداء الا انها تجاهلت هذا الامر وقد زارته في خيمته ايضا وتناولت معه العشاء جالسين على السجاد الافخر بينما كان الجلوس يلقون الاشعار والاغاني التي تمجد ايام العرب وأنهوا العشاء بتناول حليب الابل من اوعية خشبية ضخمة. وكانت تلك امتع ليلة الى الآن في رحلتها وأثناء النظر اليه كانت تحاول نسيان الاشاعات التي تتحدث عن قسوته.

بقاؤها لمدة اسبوع في وسط الحويطات مكنها من الاطلاع على جانب آخر من الحياة العربية وهو جانب كان يشوبه الغموض بالنسبة لها الا وهو حياة الزوجات. فقد امضت الكثير من الوقت في خيام النساء مع كاميرتها حيث التقطت بعضا من افضل الصور ولم تكن غيرترود مهتمة بصفة خاصة بحياة النساء، الا ان قصصهن اثارت اعجابها فقد ابلغتها هيلة احدى زوجات الشيخ محمد كيف ان النساء يعانين من العمل البدني الشاق والتنقل المستمر خاصة خلال فترة الحمل وبعده مباشرة وقالت 'اننا لا نرتاح لساعة واحدة'.

وحذرها الشيخ محمد من الشمر وطلب منها تفاديهم قائلا لها انهم قد ينهبونها ويقتلون رجالها. وان عليها التوجه نحو الشرق بدل من الجنوب وعين لها مرافقين ليضمنوا سلامتها حتى بلوغها الجنوب كما هو مخطط. وكان من حظهم ان الامطار التي سقطت في نوفمبر كانت غزيرة فخلفت العديد من البحيرات والبرك المائية وازدهرت النباتات والشجيرات حيث استطاعت الجمال الرعي فيها اثناء سيرها وهو ما جعل القافلة لا تتحمل مشقة حمل العيش الجاف لإطعام الجمال. وبعد مسيرة خمسة أيام كان الجوف حيث يمكنها شراء المزيد من الطعام. لكن بدأ يساورها شعور بأنها لن تصل الى حائل اذا ما اكثرت من تغيير مسارها. وبالتالي استمرت القافلة في مسيرها عبر هبوب الرياح العاصفة.

عند عرب سليمان

دخلت قافلة غيرترود الى ممر جبلي وتوجهت الى خيام عرب سليمان، وحالما التقت شيخهم ومن تناول اول فنجان من القهوة، ظل يلح في السؤال حول الطريق الذي ستسلكه والغرض من رحلتها وبطريقة بعيدة عن اللياقة، وعند مغادرتها تابعها كالظل وعند وصوله الي خيمتها بدأ في تفقد اغراضها، بينما وقف رجالها عاجزين عن منعه القيام بذلك، وحالما عثر على منظارها طلب ان تعطيه اياه. ورفضت غيرترود ولكن بعد حلول الليل وبعد ساعات من النقاش الحاد تم الاتفاق على منحه مسدسا مقابل قيام ابن اخيه بدور المرافق للقافلة.

وكانت المشاكل قد بدأت عندها، ففي صباح اليوم التالي وقبل استيقاظها حضر مرة اخرى، وسمعته يتحدث

بصوت غاضب يبلغ فتوح وسيد، سائقي جمالها انه لم تتنقل اي سيدة مسيحية من قبل في هذه المناطق وانه لا يحق لواحدة ان تفعل ذلك الآن، وارتدت ثيابها على عجل، وسمعته اثناء ذلك يحاول اغراء طاقمها بالتمرد عليها وخرجت مسرعة وعاملته بكل برود، وبعد ساعة من التهديدات التي ترتفع حدتها تدريجيا، قال انه اذا لم يحصل على بندقية ومنظار زايس فانه سوف يتعقبها اثناء الليل ويأخذ كل ما يريد، واخذها الرجال من مرافقيها جانبا وهمسوا لها بانه من الافضل ان تعطيه ما طلبه حتى يتفادوا المشاكل وقد خضعت لذلك وهي غاضبة، واخذ الغرضين اللذين طلبهما وطلب المزيد من المال من الاسرة الشمرية التي كانت ضمن القافلة.

في 11 فبراير، اي بعد قرابة شهرين منذ انطلاقها من دمشق بدأت تظهر امام القافلة تلال النفود، وكانت تقف امامهم الكثبان الرملية في تلك المنطقة التي لا توجد لها خرائط عبر الافق، مثل سلسلة جبلية، وكان عليها اخذ قياسات طبوغرافية دقيقة يوما بعد يوم وتحديد مواقع مصادر المياه اثناء الرحلة.

وبحلول 20 نوفمبر بلغت القافلة اطراف النفود، حيث شاهدوا مجموعة من الخيام، وهناك استأجروا مرافقا جديدا دفعت له غيرترود جنيهين استرلينيين ومنحته ملابس جديدة مقابل ان يساعدهم في اكمال الرحلة، حتى بلوغ حائل. وفي 22 فبراير وبعد 11 يوما من دخول منطقة النفود وصلت اول قرية تشاهدها منذ ان تركت زيزا.

وبعد يومين من ذلك وصلت القافلة الى نقطة تبعد ساعتين من المسير الى حائل، وفي صباح يوم 25 فبراير بعثت اثنين من رجالها مقدما للاعلان عن وصولها، واخيرا تقدمت القافلة وعلمت انها قد حققت هدفها بعد ان قطعت ستمائة ميل، وشاهدت امامها المدينة القلعة الجميلة وقد غمرها ضوء الفجر بجدرانها الطينية التي صبغت باللون الابيض، واشجار النخيل الخضراء التي تعلوها وبساتينها المزهرة، وقد كان يشع منها الهدوء والبراءة والسلام، وشعرت غيرترود وكأنها تقف امام موقع مقدس

'مس بيل' عاشقة الصحراء 8

عملت لصالح الاستخبارات البريطانية.. لكن دون أجر: الخارجية البريطانية طلبت منها المعلومات عن تغلغل الأتراك في الجزيرة العربية

غيرترود برفقة تشرشل ولورنس العرب وآخرين أمام أبو الهول عام 1921

كان الشرق الأوسط في العقد الأول من القرن العشرين يعج بعمليات جمع المعلومات الاستخبارية وبأعمال الدبلوماسية السرية. فقبل عام 1908 عندما اصبحت بريطانيا تشك في طموحات المانيا، لم يكن هناك مكتب استخبارات دولي في لندن وكانت وزارة الخارجية تستخدم بعض الهواة والمغامرين ممن يعملون بالمجان في جمع التقارير اثناء رحلاتهم الاستكشافية. وكان هناك عدد قليل من هؤلاء في الشرق الاوسط، حيث تكثر مخاطر السفر ويسود غياب القدرات اللغوية ومعرفة عادات الصحراء واعرافها ووجود مناطق لا تظهر في الخرائط المعروفة وحيث لا توجد طرقات أو ملاذ اذا ما ساءت الامور. وقد اتقنت غيرترود عمليات المراقبة وانجذبت باتجاه مناطق النزاع السياسي وقد جعلتها رحلاتها اختيارا بديهيا ضمن مجموعة المخبرين المتطوعين إذ كانت تعمل ولكن دون اجر مع ادارة الاستخبارات في القوات البحرية وانه في نوفمبر عام 1915 طلب مدير استخبارات القوات البحرية او الاسطول الكابتن هول حضورها اليه في لندن، وابلغها ان القاهرة ارسلت برقية تطلبها.

معرفة غيرترود الشخصية لمناطق شاسعة من الجزيرة العربية واقوامها المختلفين جعلت منها شخصية فريدة، ليس فقط لان معرفتها كانت موسوعية بل لان تلك المعرفة والمعلومات كانت حديثة. فقد عادت من

حائل قبل 16 شهرا، كما انها كانت قد امضت قرابة العامين من حياتها في التنقل عبر الصحارى العربية ففي رحلتها السابعة لاحظت ضعف الامبراطورية العثمانية اثناء تنقلها اولا بصفتها سائحة ثرية ثم كرحالة وعاملة في مجال الآثار وكجامعة للمعلومات لصالح الحكومة البريطانية.

وكانت بعض تقاريرها قد كتبت بطلب من الحكومة والبعض الآخر بمبادرة طوعية وكانت في البداية ترسلها، ربما عبر شيرول وبعدها بطريقة مباشرة الى رجال الدولة او الدبلوماسيين ممن تعرف ان الامر يهمهم. وربما كان ذلك وزير الخارجية السير ادوار غراي المسؤول في بداية الامر عن توظيفها. وقد طلبت منها وزارة الخارجية التحقيق في مدى تغلغل النفوذ الالماني في الامبراطورية التركية في شمال الجزيرة العربية وشرقها. وقد تمكنت من الوصول الى اجابة لذلك الطلب عبر العديد من الوسائل المتاحة لامرأة قد يشتبه بأنها جاسوسة.

مصادر المعلومات

ففي اثناء تنقلاتها شربت القهوة وتبادلت النميمة في خيم كل الشيوخ الذين التقتهم. كما انها حضرت دعوات العشاء في البلدات والمدن وقد حرصت على استغلال العديد من اتصالاتها في اللقاء والحديث مع اي شخص لديه حيثية اجتماعية او سياسية.

والتقطت صورا للعديد من المواقع الاثرية وراقبت المنشآت العسكرية وعندما واجهت تعقيدات في مارس عام 1900 لدخول قلعة الكرك التي بناها الصليبيون وحيث كان الضباط الالمان يدربون الجنود الأتراك استخدمت جرأتها الطبيعية، ودخلت الموقع بكل بساطة بطريقة ودودة، حيث القت التحية على الجنود بكل تهذيب، وقد منحتها القائمة الطويلة لمن تستطيع الاتصال بهم ومهاراتها في تحديد الطرق، ورسم الخرائط، وأسلوبها الدقيق في تسجيل تقاريرها الفرصة للحصول على لقب رسمي.

أول رتبة

وصلت الآنسة الميجور بيل الى القاهرة وكانت اول ضابطة في تاريخ المخابرات العسكرية البريطانية. وتم منحها رتبة الميجور او الرائد. وكما هي الحال فقد ارتدت فساتين من اللون الازرق والابيض مع ورود في الخصر وقبعة كبيرة من القش. وفي المساء كانت ترتدي فساتين حريرية طويلة مع فانلة مفتوحة من اللون ذاته وقد كان الضباط في حيرة من امرهم فيما يتعلق بكيفية معاملتها ومدى اطلاعها على الامور. ولكنها تمكنت من التأقلم بسرعة.

وكان السير غيلبرت كليتون رئيسا للمخابرات العسكرية في الجيش المصري وذلك حتى نقله للعمل مع السير هنري ماكمان المندوب السامي الجديد الذي كان بمنزلة حاكم لمصر. وقد تخلى الليفتانت كوماندر هوغارث عن العمل في مجال الآثار وانضم الى كليتون لإنشاء 'المكتب العربي' الهيئة الاستخبارية الجديدة الخاصة بالشؤون العربية. وكان عدد العاملين فيه 15 شخصا وكان هوغارث المشرف على المناقشات والمداولات العديدة، اما كليتون الهادئ فقد كان يعمل من خلال نفوذه الواسع.

بريطانيا بدل تركيا

وكان العاملون في المكتب يقيمون في فندق غراند كونتيننتال في القاهرة ومكاتبهم في فندق سا وي القريب الاكثر فخامة. وقد ملأ هوغارت والميجور لورنس الارفف في الغرف بالكتب والمراجع التي تتناول كل الموضوعات المتعلقة بالشرق الاوسط. وقد كانت القاهرة القلب الآمن لمصر المحمية البريطانية التي تعد مركز السيطرة. فمن الناحية الشكلية كان الخديوي او الملك تابعا لتركيا، ولكن عندما افلست مصر انقذتها بريطانيا وطالبت مقابل ذلك بوجود ممثل مقيم. وتمكنت بعدها بريطانيا من التغلغل في الادارة مثلما كان يفعل الاتراك في جميع انحاء الشرق الاوسط.

وكانت رسائل غيرترود التي بعثت بها من القاهرة الى اهلها قصيرة فقد كانت تعمل في مكتب سري من الناحية العسكرية كان يضم نخبة من العاملين وعمله في المجال السري جعله يتميز بحرية غير عادية في تنفيذ اجندته وخططه، فالمشاريع الدولية الكبرى التي كانت تناقش فيه ادت الى اثارة الشبهات الصادرة عن رجال الاستخبارات في الهند ونقلت الى لندن عن طريق المندوب السامي نفسه.

وبعد وصولها بقليل انغمست غيرترود بسرعة في عالم جديد غريب ومدهش. ففي المكتب وأثناء وجبات العشاء تعرفت على شخصيات مرمرقة في تلك الدائرة التي اصبحت جزءا منها.

العلاقة مع سايكس

وقد جاء سير مارك سايكس خلال العام الاول. وهو مالك اراض كاثوليكي متعجرف. وكان يسكن في منطقة قريبة من مسكن اسرة بيل في يوركشاير في انكلترا وسايكس رحالة نشر عددا من الكتب حول رحلاته في الشرق الاوسط. وقد التقته غيرترود في حيفا في عام 1905. وقد تشاجر الاثنان اثناء حفل عشاء عندما وصف العرب ب'الحيوانات' ونعتهم بأنهم 'جبناء'، و'مرضى'، و'كسالى' وكانت تنوي في ذلك الوقت ان تقوم وسايكس بزيارة جبل الدروز. وقد اتهمها في وقت لاحق بأنها خدعته حتى تصل الى هناك قبله. وقد وصلت غيرترود قبله الى هناك بالفعل وانها قد تكون استخدمت بعض الخدع لتأخيره. وقيل انها سربت كذبة الى والي دمشق تقول ان سايكس زوج شقيقة رئيس وزراء مصر وذلك حتى يرفض اعطاءه اذنا بالتنقل في الصحراء. ولكنهما استطاعا بطريقة ما من تحسين علاقتهما. واصبح سايكس المستشار الرئيسي للحكومة البريطانية في علاقاتها زمن الحرب مع العرب بكل ما يحمل من تحيز.

.. وجورج لويد

كما زار المكتب جورج لويد المنتمي الى اسرة من اصحاب المصارف وكان خبيرا في شؤون التمويل والسياسة والتجارة ومؤمن شديد الايمان في مزايا الحكم الاستعماري البريطاني. وهو لم يقم طويلا في القاهرة. كما التحق بالمكتب اوبري هيربرت الذي قدم باتقانه للغة التركية خدمة كبرى للمكتب كما كان هناك وزير شؤون الشرق السير رونالد ستورس الذي عمل مع السيرالدون غورش وكيتشز المقيمين في القاهرة قبل تعيين ماكمان.

لورنس وابتسامته

اما لورنس فقد كان شخصا فريدا من نوعه وكان مصدر ازعاج مستمرا للجيش. وكانت ابتساماته التي لا يعرف سببها وكأنها رد فعل لنكتة خاصة مصدر ارتباك للجميع. غير ان غيرترود او غيرتي، كما كان يطلق عليها لم تكن تشعر بأن ذلك الامر يربكها. وقد ركزت رحلاته الطويلة وتنقلاته على القلاع الصليبية في سوريا وشمال منطقة ما بين النهرين. وكان قد اعتاد في هذه التنقلات بعيدا عن المكتب ارتداء الزي العربي، ولكن لغته العربية لم ترق الى معرفة غيرترود بها. كما انه لم يكن بثرائها، وبالتالي فإن وضعها في اوساط شيوخ العشائر في الصحراء كان افضل من وضعه لديهم، اذ انه لم يقبل بأنه ند لهم. وقد ظل يعمل في المكتب لعدة اشهر في جمع 'قطع من المعلومات' وقد اتخذ موقفا متعجرفا فيما يتعلق بمسألة رسم الخرائط. وكما اقر في خطاب يدور حول خريطته لطرق وآبار سيناء، بأنه يخشى ان يطلب منه التنقل في تلك الصحراء من دون ان تكون لديه وسيلة اخرى سوى خريطته.

الثورة العربية

وفي اول لقاء على العشاء مع هوغارث ولورنس، تعرفت على ابعاد القضية التي كانت تشكل مصدر خلاف

حينها في اوساط الموظفين البريطانيين في القاهرة وهي: هل تستطيع الثورة العربية التي قد يدعمها البريطانيون القيام بما لم تستطع القيام به قوات قوامها ثلاثمائة الف جندي في الدردنيل؟

فقد كانت وجهة نظر العسكريين والجهاز الاستعماري التقليدي ان كل ما يمكن فعله قد بذل ومن وجهة نظرهم فإن القبائل المقاتلة لا تتقن اساليب انضباط الحرب الحديثة. وللرد على هذه الحجة يقول المكتب العربي ان الحرب الحديثة المنضبطة فشلت في ثلاث جبهات الى الآن.

وفي عام 1914 برز أول مؤشر واضح لوجود ثورة عربية ظهرت في البداية على يد الشريف حسين الهاشمي شريف مكة الذي كان قد قضى فترة ك 'سجين شرف' في القسطنطينية لمدة 18 عاما، وذلك حتى إسقاط حكم السلطان في عام 1908 حيث أقدمت الحكومة الجديدة التي عرفت باسم شباب الأتراك، في خطوة لم تتسم بالحكمة، على إعادته إلى مكة كأمير لها. أما ولداه عبدالله وفيصل وهما شابان متعلمان لديهما خبرة سياسية، فقد بقيا في تركيا حتى عام 1914 حيث اختلفا مع الأتراك وعادا إلى مكة. وقد أدى اندلاع الحرب إلى عزلة الحجاز وتوقف الحج وامتدادات الغذاء إلى تلك المنطقة القاحلة التي كانت تعتمد على حسن نية الأتراك وخط سكك حديدهم المهم.

وفي حالة اندلاع الثورة سيكون للبواخر الإنكليزية التي تجلب الأغذية دور حيوي. وفي عشية الحرب العالمية الأولى قام عبدالله بصفته مبعوثا من والده بزيارة مفاجئة إلى وزير شؤون الشرق. وكان السير رونالد ستورس حينها يتولى منصب القنصل العام بالوكالة في القاهرة. وبدأ عبدالله الذي يتسم بشخصية ميكافيلية، وهو عاشق للشعر الجاهلي ورواية القصص القديمة، وإلقاء شعر المعلقات السبع وقد تأثر ستورس كثيرا أثناء إصغائه له بالشعر البديع والقصائد العديدة التي يحفظها عبدالله عن ظهر قلب. وقد ظل مستغرقا في الاستماع وبإعجاب حتى أيقظه من حلمه كلمة 'مدافع رشاشة' الخارجة عن السياق. فقد وصل عبدالله إلى موضوع زيارته أخيرا، وكان يرغب في معرفة إذا ما كان البريطانيون سيزودونه بالمدافع كأداة 'دفاع' في وجهة هجمات الأتراك، وان كان على والده تحديهم.

وقد رفع الأمر بعدها إلى الممثل المقيم البريطاني اللورد كيتشز فمع وجود إمكانية الدخول في حرب ضد تركيا العثمانية بدأ يتبادل الرسائل مع عبدالله.
وقد استمر عبدالله في ذلك التواصل مع ماكمان خلف كيتشز بعدانتقال الأخير الى لندن وتوليه منصب وزير الحربية. وقد تساءل كيتشز اذا ما كان عبدالله ووالده وعرب الحجاز سيكونون مع البريطانيين ام ضدهم. وقد وعد في برقية لاحقة بتوفير الحماية البريطانية مقابل تقديم العرب يد المساعد كما ألمح ايضا الى ان 'عربيا من اصل شريف قد يتولى الخلافة في مكة أو المدينة'، واستطرد متحدثا عن 'بشائر الحرية للعرب، وارتفاع شمسها فوق كل بلاد العرب'.

وقد اعقبت تلميحات كيتشز تصريحات ماكمان المربكة الماكرة الذي تبادل الرسائل مع الأمير حسين للنظر في امكانية الثورة العربية ضد الاتراك وعواقبها. ولم يتم تقديم وعود محددة لكن الشريف حسين تبنى فكرة امكانية ان يصبح حاكما للأمة العربية.

تأثير القضية العربية على غير ترود

ما اطلق عليه 'القضية العربية' كان له تأثير على غير ترود خاصة في بداية عملها حيث كان عليها فهم تفاصيل السياسات العربية وتعقيداتها ومعرفة الشخصيات من الحجاز ومن القدس الى مكة حيث كان يؤمل ان تبدأ الثورة. وكان عليها جمع وترتيب جميع معلوماتها حول العشائر ومحاولة اكمال اي نقص فيها وتحدد القبائل وولاءاتها، وعداواتها وقد اعتادت على صور قلمية لشخصيات شيوخ العشائر ممن تعرفهم. كما كانت في الوقت نفسه تقوم برسم طرق الصحراء والمنافذ التي يمكن المرور عبرها في المناطق الجبلية وتلك الفاصلة التي لا توجد بها مصادر مياه، ووسائل النقل والمصادر الطبيعية وذلك الى جانب وضع ونفوذ الجماعات العرقية والدينية والاقليات.

مس بيل' عاشقة الصحراء 9



أراد تشرشل تسريع الأسطول فأصبح العراق مهما للغاية : لواءان من الهند احتلا الفاو والبصرة حتى الناصرية

غيرترود مع لورنس في دمشق عام 1921

تركز الجزء الاساسي من عمل غيرترود على العراق او منطقة ما بين النهرين التي باتت تحتل اهمية كبرى مع نشوب الحرب الاولى.
فمنذ بداية الحضارة ظلت هذه المنطقة التي تقع بين نهري دجلة والفرات توفر منطقة خصيبة في شمال الصحاري العربية، كما انها تقع في الطريق الى المحيط الهندي، عبر مياه الخليج.

بدأت 'حملة العراق' في عام 1914 بقرار صدر عام 1911 عن الادميرال البحري جون فيشر وونستون تشرشل بتطوير سرعة الاسطول البريطاني عن طريق تحويل سفنه من استخدام الفحم الى النفط.
وقد اصبحت مسألة ضمان مصدر للنفط الخام تسيطر عليه بريطانيا تحتل الاولوية.

النفط في زاغروس

حتى عام 1908 كانت اميركا وروسيا اكبر موردين للنفط غير ان انتاج اذربيجان بدأ ينضب كما انه لم يكن تحت سيطرة البريطانيين، وفي ذلك العام تم اكتشاف النفط من قبل شركة نفط بورما البريطانية في سفوح جبال زاغروس في الحدود فيما بين العراق وايران. وكانت الشركة تزود شركة النفط الانكلو- فارسية الجديدة بزيت الوقود الذي ينقل مسافة 138 ميلا الى الجنوب حتى عبادان حيث توجد مصفاة جديدة للنفط في الضفة الشرقية لشط العرب.

ووفرت الحكومة البريطانية مبلغ 2.2 مليون جنيه وامتلكت نسبة 51 في المائة من اسهم الشركة، وذلك بالاضافة الى عقد مدته عشرين عاما لتزويد الاسطول بالوقود.

حرب على العراق

وقد توافرت الآن اسباب جديدة تدعو البريطانيين للدخول في حرب مع الاتراك في العراق وذلك لتأمين النفط وانابيبه ولحماية الطريق الى الهند والتزود بالقمح من وادي الفرات، ومنع الاتراك من استخدام خط سكة الحديد الذي يربط بغداد والبصرة لنقل الجنود، وتقديم المساندة لمسرح العمليات الحربية.

وبينما تم ضبط تحركات الجيش المصري كانت الحكومة البريطانية مشغولة باوروبا، فان افضل ما كانت تستطيع حكومة بريطانيا القيام به هو ارسال الاوامر الى الهند من اجل الحفاظ على المصالح البريطانية في الشرق الاوسط. وبسبب توقعها لتحركات عدوانية تركية كانت الهند قد ارسلت مسبقا لواء عسكريا الى منطقة الخليج حيث تمكنت في وقت لاحق من السيطرة على القلعة التركية في الفاو ومحطة الاتصالات البرقية الواقعة في مصب نهر البصرة حيث تم دفع العدو باتجاه نهر دجلة وبعدها تمكنت فرقتان من التوغل اكثر داخل العراق تحت قيادة الجنرال نيكسون حتى تمت السيطرة على الناصرية.

بوادر الثورة

والحكومة البريطانية في الهند كانت لديها اسبابها الخاصة للغضب من ويستمنستر او الحكومة البريطانية. ففي مذكراته (سنواتي في الهند) كتب المندوب السامي حينها لورد هاردينغ عن قناعاته بأن الحرب ستحسم في مقاطعة الغلاندرز، وانه كان على بريطانيا تركيز جهودها هناك وانهاء الحرب، كما يصف المطالب المستمرة من حكومة بلاده الى حكومة الهند لإرسال الجنود، وعتاد الحرب الى فرنسا، وشرق افريقيا والدردنيل، وسالونيكا وغيرها. وفي احتسابه للجهد الذي بذلته الهند لمواجهة مطالب وزارة الحربية اشار الى تجنيد 300 الف جندي هندي وتوفير 70 مليون طلقة من ذخائر الاسلحة الخفيفة، و60 الف بندقية و550 مسدسا، بالاضافة الى الخيام والاحذية العسكرية والملابس وسروج الخيل، وبحلول الوقت الذي وصلت فيه الحرب ذروتها كانت الهند، حسب وصفه قد 'استنزفت تماما'، ولم يعد لديها ما يمكن ان تقدمه. وزادت التلميحات الى إمكان اندلاع الثورة العربية من ارتفاع الضغط لديهم لأن ذلك قد يجلب الدمار الى الهند، فهو لن يدعم طموحات شريف مكة لأن بروزه سوف يجلب العديد من المشاكل مع المسلمين الشيعة وامارات منطقة الخليج.

مناورة بريطانيا

وكان المندوب السامي في الهند يحكم اكبر عدد من المسلمين في العالم والمطالب التي تفرضها عليه وزارة الحربية تثير العديد من المشاكل. فالجيش التركي مسلم بالكامل تقريبا، وهو مكون من اتراك وعرب تم تجنيدهم من الصحراء وارسال جنود هنود، العديد منهم من المسلمين لمحاربة الاتراك في العراق انما يعني ان البريطانيين يقودون الجندي المسلم لمقاتله الجندي المسلم، وقد فاقم هذا الامر الولاء الذي يكنه المسلمون الهنود للخليفة العثماني في تركيا.

وبالنسبة للمندوب السامي فإنه لم يكن يفهم ان تثير بريطانيا المزيد من التمرد في اوساط المسلمين عن طريق تشجيع العرب على الثورة ضد الحكم التركي المسلم، فالمؤسسات الاسلامية البارزة في الهند مثل خدام الكعبة واللجنة المركزية لعموم مسلمي الهند كانت مؤيدة لتركيا، وكان مكتب المستعمرات في ذلك الوقت يتفق مع المندوب السامي بأن الانتفاضة العربية لن تؤدي الى فائدة كما كانت لندن ونيودلهي مقتنعتين على كل حال بأن الثورة لن تقع، وانها ان حدثت فإن مصيرها سيكون الفشل.

لورنس يتأهب

ومع ذلك، وبحلول ربيع عام ،1915 كان لورنس يتوق الى ترك عمله في رسم الخرائط والعودة الى حلبة العمل والنشاط. وكان قد اعد خطة تقود الى الاسراع في احتلال دمشق واسقاط آمال الفرنسيين في سوريا، غير ان شعور غيرترود كان مختلفا فقد كانت متأثرة بموت الرجل الذي احبته. وقد ادى شعورها بالاكتئاب اخيرا وضغوط العمل الى معاناتها من اعياء جسدي لفترة قصيرة. وقد ساعدها على التغلب على ذلك ركوبها للخيل في ساعات الصباح الاولى للترويح، كما ساعدها العمل في التغلب على مشاعرها وقد يكون لورنس، أو ربما مع هوغارت و وولي، قد ساعدها في زيارتها لقبر دوني - وايلي. وعلى كل حال فقد بدأت غيرترود تقدر بعض الجوانب الإيجابية وكذلك جوانب النقص في زميلها غير العادي.

وأصبح الاثنان أصدقاء وقد كان من الواضح انهما سيصحبان أشهر من عمل في 'المكتب العربي' حيث تمكنا من العمل على تحقيق أحلامهما رغم كل العقبات. وسيكون لورنس أول من حقق حلمه بأن يتحول إلى أسطورة وهي عندما سمعت بمغامراته بدأت تتوقف إلى العمل بحرية مرة أخرى.

وكان هدف المكتب الذي يعد هيئة تابعة للحكومة البريطانية هو الانتصار في الحرب، وكانوا يدركون ان اندلاع التمرد ضد الأتراك أملهم الوحيد، كما كانوا يدركون ان هنالك احتمالا بحدوث هذا الأمر، وبحلول عام 1914 شاع الاستياء في أوساط رعايا الإمبراطورية العثمانية العرب. وقد لاحظت غيرترود خلال أحاديثهما مع الدروز منذ وقت مبكر يعود إلى عام 1905 بداية حركة تهدف إلى الاستقلال. وكان سكان النجف وكربلاء قد انقلبوا ضد الأتراك في العراق. كما بدأت الحركة الاستقلالية العربية في البصرة وكان وراءها السيد طالب

النقيب وفي الوقت ذاته كان المكتب يدرك تماما أن تحقيق الحركة العربية الموحدة للاستقلال أمر مستحيل، إذ من الصعب توحيد ولاءات العشائر كافة في الشرق الأوسط بل كان من الصعب جمع اثنين من الشيوخ للجلوس معا.

وظلت هنالك حقيقة تقول إن الاغراء الوحيد الذي يجذب العشائر للتوحد في وجه الأتراك، ومواجهة الدعوة إلى الجهاد ضد البريطانيين، كان فكرة وعد العرب بالاستقلال والحرية وقد كان هنالك مسبقا شبه وعد صرح به كيتشنر وفي الإمكان التراجع عنه.

حلم الوحدة

لم تكن غيرترود ولورنس الوحيدين الراغبين في إعطاء العرب حق الحكم الذاتي المدعوم بمستشارين بريطانيين لتحقيق الاستقرار. وبينما كان المكتب العربي، الذي كان بمنزلة مركز للدراسات والتوصيات، يرى بإجماع أفراده ان تعدد الأعراق والعشائر، والمعتقدات يجعل من المستحيل خلق أمة واحدة متناغمة لديها مؤسسات سياسية ذات كفاءة. وقد كانوا يتسمون بالبراغماتية وبالتالي فقد عارضوا كل المحاولات التي تبذل لضم العراق إلى الهند. إذ بينما كان البريطانيون في الهند قد تمكنوا من فرض سيطرتهم عليها عن طريق نظام يقوم على حكم المهراجات ولم يكن في الشرق الأوسط نظام مشابه لذلك. فالنظام العربي يقوم على أساس شخصيات دينية بارزة بعضها يدعي النسب الى الرسول، صلى الله عليه وسلم، وأسر دينية مرموقة. وهي تمتلك مصادر للثروة تكفيها لتقديم العون للزعامات الأقل منها وللعشائر لكسب ولائها.

ان فهم غيرترود لهذا الوضع وما تتميز به من كفاءة سياسية واسلوبها في الاقناع في طرح القضايا الشديدة التعقيد كانت تشكل مزايا اضافية ذات قيمة لجهود المكتب الساعي لايجاد سبل لتحقيق التقدم.

وكان التفكير السليم الواضح حينها بعيد المنال. فقد كانت هناك حوالي عشرين ادارة حكومية وعسكرية مختلفة تشارك في اي وقت من الاوقات في صياغة السياسة البريطانية تجاه الشرق الاوسط خلال الحرب العالمية الاولى وهناك مجلس الحرب، وقيادة الاسطول، والوزارة الحربية، والجهاز الإداري في الهند، ومصر والسودان التي كان لديها ما تقوله في هذه المسألة. وكانت هنالك ثلاث قوات استكشاف كبرى متمركزة في العراق، والاسماعيلية والاسكندرية ،كما ان هنالك مؤسسات سياسية واخرى تابعة للاسطول في اربع مناطق رئيسية وبالتالي لم يكن من المستغرب وجود تضارب في الاتصالات، وان تكون الوعود التي قدمت للعرب مختلفة من حيث المحتوى والمقصود منه. وفي واقع الأمر فان التفاهم الانغلو - عربي كان يعاني من سوء الفهم الناتج اساسا عن الاتصالات الاولى، فيما بين ماكمان والشريف حسين، والاتفاقية الانغلو - فرنسية التي صاغها سايكس والفرنسي جورج بيكو في مايو 1916 والتي لم تبلغ بها غيرثرود او رئيسها حينها الا بعد مرور عامين.

أجندة سرية

وكان الشعور السائد في المكتب العربي بان هناك اجندة سرية وقد اتفق العاملون على القيام بخطوة. وكتب لورنس عن نواياهم بالتسلل الى اروقة السلطة لدعم خطة 'العالم العربي الجديد' وكان اول من جندوه المندوب السامي نفسه سير هنري ماكمان الكفؤ الموالي. وقد تمسكت مجموعة العاملين في المكتب بآرائها حول تقرير المصير الخاص بالعرب في وجه معارضه دلهي. وكانوا بالكاد قادرين على التحرك الى الامام بخطتهم لشن تمرد عربي من دون ان يجد دعما من الهند. فقد كان المندوب السامي وحكومته في الهند يعتقدان بشدة انه يجب فرض الحكم البريطاني على جميع العرب وان ذلك الامر سينجح كنجاح الحكم البريطاني في الهند الذي تمكن من إدارة الهند باستخدام 50 ألف جندي بريطاني فقط.

وانخرطت غيرترود في النقاش الطويل والحاد الذي كان يدور حينها حول إمكانية هزيمة الأتراك بأساليب حربية أخرى 'غير بريطانية' أي عن طريق تحويل التمرد، وقطع خطوط السكك الحديدية وخطف الإمدادات،

وتشجيع العمليات الإرهابية وقيادة حرب العصابات، وكانت مشاركة غيرثرود ومعرفتها بالأساليب والعادات العربية قد ساعدتهم في صياغة تلك الأفكار، فقد كانت ربما الوحيدة بينهم التي كانت قد شاركت في حملات غزو.

وقد ظلت الحكومة الهندية مصرة على مد سيطرتها إلى المنطقة العربية وضم العراق. وقد عبر المندوب السامي عن مشاعره بوضوح في خطاب بعثه إلى وزارة الخارجية. وبعدها ظل يعزز معارضة المكتب العربي من لندن أيضا.

وكانت غيرترود حينها فرغت من صياغة تقريرها الأولي حول العشائر الذي تلقته الحكومة باحترام كبير لشموله واهتمامه بالتفاصيل. وكانت غيرترود مشغولة بحل الخلاف فيما بين الحكومة في الهند والمكتب العربي، وقد كتبت في 20 فبراير 1910 خطابا الى كابتن هول مدير الاستخبارات البحرية في لندن تقول فيه: إنه من المهم أن يظل هناك اتصال وثيق فيما بين الهند ومصر بما انهما يتعاملان مع جانبين من المشكلة ذاتها.

مس بيل' عاشقة الصحراء - (10)



زملاء بيل كانوا يرون أنها تفتقد الأنوثة

غيرترود مع السير بيرسي كوكس في البصرة عام 1916

اقترحت الإدارة البريطانية على غيرترود ان تذهب الى النقاط الساخنة في الحرب، اي الى البصرة الواقعة على شط العرب، والكويت والجزيرة العربية وبلاد فارس. وكانت مهمتها ان تقوم بدور ضابطة اتصال فيما بين اجهزة الاستخبارات في القاهرة ودلهي، وان تقوم في الوقت نفسه بكتابة تقرير مفصل حول عشائر العراق وولاءاتهم. وكان عليها بذل كل ما في وسعها لاقناع العرب المحليين بالتعاون مع البريطانيين.

وبالطبع، وكما هي الحال دائما، فقد كانت هنالك معارضة شديدة من طرف العاملين في الجيش والاستخبارات ممن لن يقبلوا وجود امرأة بينهم. وقد حذرها بعض رؤسائها من امكان مواجهة صعوبات في البصرة، وكانت تجري الاشارة الى غيرترود بين وقت وآخر بأنها تفتقر الى الانوثة، وكانت تعتبر هذا بعيدا عن الحقيقة، فهي كانت تعمل في دائرة تضم مسؤولين وضباط جيش من الذكور. وقد تحدتهم في مجالهم امرأة كانت غالبا على حق مما جعل البعض منهم يتهمها بافتقار الانوثة.

في البصرة من دون لقب

ووصلت غيرترود الى فرع المقر الرئيسي للاستخبارات في البصرة من دون ان يكون لديها اي لقب او اسم لوظيفتها او راتب، كما لم تكن تعرف ان كانت الإدارة التي التحقت بها ستحتفظ بها او ان تعيدها فورا من حيث اتت.

تحولت البصرة، بيوتها الطينية وبساتين النخيل وقنوات الري، الى معسكر كبير للجيش بين ليلة وضحاها، وكان السير بيرسي كوكس في رحلة خارج المدينة فاستقبلتها زوجته الليدي كوكس، حيث استضافتها في غرفة نوم اضافية في البيت، وذلك حتى تجد لها مسكنا، ولم يكن لديها مكتب كذلك، فكان عليها ان تعمل في غرفة نوم الكولونيل بيتش المسؤول عن الاستخبارات العسكرية ، وكان يشاركها المكتب كامبيل طومبسون مساعد بيتش الذي عمل في السابق مع هوغارت ولورنس.

بي بيت كوكس

وشرعت في الاطلاع على الملفات التي اعطيت لها، ووظفت صبيا عربيا اسمه ميخائيل للعمل خادما لديها، وقد كان عليها الخضوع للكثير من اللوائح والضوابط مثل ان رسائلها تتعرض للرقابة، وكانت هنالك ايضا قيود على الاماكن التي تستطيع الذهاب اليها وما يمكن ان تفعله. وانها اذا مازارت العرب في بيوتهم يجب ان تكون مصحوبة بضابط او مرافق، وظلت تحاول ألا تزعج الليدي كوكس التي تقيم في بيتها، حيث عمدت الى تناول وجبة الغداء في قاعة طعام الضباط في مكان العمل، كما حجزت غرفة في المقر الرئيسي. وكان الوضع مختلفا عن 'المكتب العربي' في القاهرة الذي كانت ترغب في الرجوع اليه لانها تدرك انها مرغوبة هناك، وظلت الايام تمر في رتابة.

مع الجنرالات الأربعة

وعاد السير بيرسي ولم تعد الامور رتيبة كما كانت وقد هنأها بنجاح رحلتها الى حائل. والسير بيرسي خريج هارو واكاديمية ساندهيرست العسكرية يشاطر مكتب دلهي المخاوف حول اثارة 'مكتب' القاهرة لتمرد عربي فهو قد عمل في المنطقة لفترة امتدت قرابة عقد من الزمن. ورتب بيرسي لحفل غداء لغيرترود مع الجنرالات الاربعة المسؤولين عن الحملة العسكرية في العراق. فهي من المفترض ان تعمل مع الاستخبارات العسكرية وكان الغرض من ذلك اتاحة الفرصة امامها لاقناع العسكريين بقدراتها المهنية. فقد كانت تساورهم شكوك حول امكاناتها.

غير ان التحدي يظهر افضل الجوانب التي تتمتع بها غيرترود. فقد كانت تتحدث لغتهم العسكرية ولديها معرفة بالوقائع الاستراتيجية وابانت لهم الفرق فيما بين مسلمي الهند والعشائر البدوية في الشرق الاوسط التي تتمتع بالاستقلالية. وقد اصابت الدهشة الجنرالات، وبدأوايهتمون بما تقول. وعند عودتها وجدت انه قد تم ترتيب مكتب خاص بها. فقد اعجب بها الجنرالات واخذها الجنرال كوبر والجنرال ماكون الذي اصبح قائد القوات البريطانية في العراق في عام ،1919 في رحلة على سفينة بخارية لبضعة ايام الى شمال شط العرب لزيارة منطقة عرب الاهوار. وقد اذهلتها منطقة البحيرات المائية، حيث يلتقي نهرا دجلة والفرات في المضايف التي يبلغ طول بعضها 50 قدما وعرضها 15 قدما.

ووجدت ان الناصرية التي كانت القوات البريطانية قد سيطرت عليها قد تحولت الى جزيرة بطول ثلاثة اميال. وهناك التقت الجنرال بروكينغ والميجور هاملتون. وعن عودتها الى البصرة واجهتها المزيد من المشكلات. فقد كانت هنالك بعض التراجعات الخطيرة إثر الانتصارات الاولية. فبعد ان طردت القوات البريطانية تحت قيادة الجنرال نيكسون الاتراك من الناصرية 'انطلق الميجور جنرال شارلز تاونسن والفرقة السادسة المكونة من حوالي عشرة آلاف جندي للاستيلاء على مدينة الكوت المحصنة.

كانت الخطة ان يعيد نيكسون تجميع صفوفهم هناك، و انتظار وصول التعزيزات. غير ان نيكسون تلقى اوامر من الهند بمواصلة السير. وشنوا هجومهم انطلاقا من مجموعة من السفن البخارية وكان هناك عشرون الفا من القوات التركية متحصنة تنتظر قدومهم. وتوقف التقدم، ووقع عدد كبير من الضحايا. وكان الوقت بداية شهر ديسمبر. وكان الاحياء سيئوا الحظ محاطين بالاتراك، حيث عانوا من اطول حصار في التاريخ البريطاني. فقد مضى اسبوع بحق اسبوع وشهر بعد شهر، وعلى الرغم من ثلاث محاولات كبرى لانقاذهم، ظل الجنود والمواطنون اسرى ضمن جدران المدينة حتى انهم اضطروا الى اكل لحوم القطط والكلام وبعدها الفئران.

مهمة غامضة

وفي منتصف ابريل زار لورنس واوبري هيربرت البصرة في مهمة غامضة من مكتب الاستخبارات في القاهرة. وتوجها فورا الى مكتب غيرترود. ولغموض مهمتهما، ومظهرهما غير العسكري تم عزلهما في قاعة

طعام الضباط وكان لورنس وهيربرت قد أعطيت لهما صلاحية عرض أكثر من مليوني جنيه استرليني لرشوة الأتراك وإنقاذ الحامية في الكويت. وكملاذ أخير كان عليهما مناقشة أمر تبادل الجرحى، وطلب منح عفو للمواطنين العرب في الكويت وقد كانت تلك مهمة مهينة ولكنها كانت تمثل آخر جهة يمكن بذله لتفادي كارثة كبرى يواجهها الجنود البريطانيون. وقد وصف لورنس في وقت لاحق الاعتراضات الشديدة التي وجهت إلى مهمته من قبل القادة البريطانيين في البصرة وقد قال له اثنان من القادة ان تلك خطوة مشينة.

وجلس لورنس وهيربرت على طاولة مع غيرترود. وبالنسبة لها فقد شعرت بارتياح كبير ان تطلع مرة أخرى على بعض المعلومات الاستخبارية من اثنين من أذكى ضباط الاستخبارات في القاهرة.

وفي واقع الأمر كان الوقت قد فات حيث ان القائد التركي خليل باشا رفض الرشوة. وفي 29 أبريل وبعد مضي 147 يوما، دخل الأتراك أخيرا الكوت، وأخذ الجنود البريطانيون أسرى، وقد توفي في وقت لاحق أربعة آلاف جندي نتيجة الجوع والعمل الشاق والمسيرات القسرية.

أما المواطنون العرب الذين كانوا ضحية وضع لا شأن لهم به فقد عوملوا معاملة قاسية على يد الفاتحين. وكان نتيجة ذلك اتخاذ العديد من قطاعات الشعب العراقي قرارا بعدم ربط مصيرهم بالبريطانيين. وعاد لورنس وهيربرت إلى البصرة وقد باتا شخصين غير مرغوب فيهما تماما. إلا أن لورنس تبقى لعدة أيام إضافية قضاها في صحبة غيرترود.

أمين عام شؤون الشرق

وأنجزت غيرترود مهمة جمع المعلومات حول العشائر في منطقة ما بين النهرين وقد أصبح بينهما وبين سير بيرس كوكس احترام متبادل. فقد أثبتت غيرترود جدارتها له. وأصبح يرى انه لا يمكن الاستغناء عنها فهي لا تعمل بجد فقط بل انها وفرت له الكثير من الوقت لاستقبالها للعديد من زواره شيوخ العشائر القادمين من جميع أرجاء العراق، والتعامل معهم. وكانت تتخلص من غير المهمين منهم، وإرسال البقية إلى مكتب كوكس مع تقرير موجز يحتوي على أسماء عشائرهم والمنطقة التي قدموا منها، وماهية الأمور التي يرغبون فيها. فقد منحها كوكس رتبة رسمية كمساعدة لمسؤول الشؤون السياسية تحمل اسم أمين عام شؤون الشرق.

ابن سعود مع بيل

وفي أوائل عام 1916 تولت وزارة الحربية أخيرا مسؤولية السيطرة الكاملة على العمليات العسكرية في العراق وأرسلت المزيد من الجنود والطائرات والمدافع ومركبات النقل. وكان الوقت قد فات لمنع وقوع كارثة الكوت. غير ان ذلك نال إعجاب الزائر المهم الذي وصل أخيرا إلى البصرة في نوفمبر وهو أمير وحاكم جنوب نجد عبدالعزيز سعود. فقد جاء في شبه زيارة ملكية حيث تفقد آخر المبتكرات العلمية في المجال العسكري التي تحولت البصرة إلى مركز لها.

واذا كان هناك قائد عربي تمنت غيرترود لقاءه وفشلت في ذلك فهو هذا المحارب الجسور ذو الشخصية الكارزمية. والامام والقاضي والحاكم. وعندما كان في الخامسة عشرة من عمره تمكنت قوات الرشيد من نفي قبيلة آل سعود، واحتلت الرياض عاصمتهم. وعند بلوغه الثانية والعشرين وبمساعدة ثمانين من راكبي الجمال زوده بها حليفه شيخ الكويت في حربه ضد الرشيد، تمكن ابن سعود بعد مهاجمة الرياض ليلا وبمساعدة ثمانية من اتباعهم انتقاهم خصيصا لذلك تسلق جدران القصر، وطعن الرشيد اثناء نومه ومع بداية خيوط الفجر فتح ابواب المدينة على مصراعيها.

وخلال العقد المقبل، وعاما بعد عام، جعل ابن سعود همه استعادة الاراضي التي فقدها اسلافه. ففي عام 1913 احتل مقاطعة الاحساء التركية التي كانت تابعة في السابق للرياض. وجعل الحاميات التركية تفر. وعزز موقعه على شواطئ الخليج. وأصبح ابن سعود صديقا للممثل السياسي البريطاني في الكويت الكابتن شكسبير الذي

بذل عدة محاولات لإقناع الحكومة البريطانية بأهمية هذا الامير. وبعد وقت قصير من اعلان الحرب العالمية الاولى ذهب شكسبير الى نجد وانضم الى ابن سعود في مسيرته نحو الشمال لإحباط آخر هجوم شنه الرشيد بمساندة الاتراك.

وقد قتل شكسبير وهو غير عسكري في تلك المعركة. وبعد وقت قصير من ذلك التقى ابن سعود مع السير بيرسي كوكس الذي كان يتولى حينها منصب كبير الممثلين السياسيين في منطقة الخليج، حيث ابرم اتفاقية رسمية مع بريطانيا هو وشيخ الكويت والمحمرة.

هكذا وصفته

وفي 27 نوفمبر 1916 تم الترحيب بالامير الذي سيؤسس لاحقا المملكة العربية السعودية، حيث استقبله كوكس وغيرترود. وأخذه بعدها في جولة في البصرة، حيث اطلع على احدث المعدات العكسرية. وكان شخصا وسيما ذا عينين مشعتين، وشعر بضفائر ودائما ما يداعب حبات المسبحة اثناء مشاهدته إطلاق المتفجرات على خنادق قديمة وإطلاق القذائف المضادة للطائرات. وهو نادرا ما يتحدث، وسافر بالقطار لأول مرة كما نقل بالسيارة وهي تسير بسرعة فائقة الى الشعيبة لتفقد قوات المشاة البريطانية وقوات الفرسان الهندية. وشهد عمليات اطلاق المدفعية الثقيلة، وطائرة تقوم بمناورة في الجو.

وفي احد المستشفيات الميدانية، وضعت غيرترود يدها على ماكينة الاشعة السينية وفعل ابن سعود مثلها ورأى الماكينة تكشف عن عظام يده. وقد وصفته غيرترود في مقالة لمجلة 'اراب بولتين' التي يشرف عليها لورنس وهي مجلة تحتوي على معلومات سرية يتم تداولها في مكاتب الحكومة البريطانية وتحرر في القاهرة، وكتبت في هذا الشأن: 'ابن سعود بالكاد يبلغ الاربعين من العمر بالرغم من انه يبدو اكبر من ذلك. وهو رجل ذو قامة بديعة يبلغ طوله اكثر من ست اقدام وهو يتصرف كشخص قد اعتاد على القيادة. وبالرغم من انه اضخم في بنيته من شيوخ البدو عادة فإنه يحمل سمات العربي الاصيل السلالة.

وتضفي عليه حركته المتزنة وابتسامته الجميلة الهادئة ونظرته التأملية الى كبريائه وسحره. كما تصفه الروايات بقوة التحمل النادرة، حتى في المنطقة العربية القاحلة، فهو ينتمي الى رجال ترعرعوا فوق متون الابل، ويقال ان هناك القليلين ممن يمكنهم منافسته في مواصلة ركوب الابل دون ان يصيبه التعب، وقد اثبت جرأته واقدامه الذي يتكامل وقدراته كجندي مقاتل، وفهمه لأمور الدولة، الامر الذي يحظى بتقدير عال من رجال العشائر'.

انطباعات ملتبسة

وكانت انطباعات غيرترود عن ابن سعود ملتبسة بعض الشيء،وكان كوكس قد تحدث عنها وابلغ ابن سعود عن رحلتها التي سبقت الحرب الى حائل، الا انه لم يلتق من قبل اي امرأة اوروبية. وقد رحبت به غيرترود بود، كما اوكلت اليها مهمة مرافقته اثناء جولاته، وقد كتب كوكس يصف ذلك بلهجة دبلوماسية 'ان ظاهرة سيدة من الجنس الناعم لوظيفة رسمية في القوة البريطانية امر لا يستطيع البدو فهمه، ولكنه عندما حان وقت لقائه بالآنسة بيل تحدث معها بكل صراحة وهدوء ورباطة جأش وكأنه كانت لديه اتصالات مع سيدات اوروبيات طوال حياته'.

ويبدو ان ابن سعود كان يتوخى الدبلوماسية في بعض الاحيان، الا انه عبر في وقت لاحق عن مشاعره الحقيقية، فقد كتب مسؤول الشؤون السياسية هاري سانت جون فيلبي الذي لم يكن يحب غيرترود حينها كيف انه 'كان يجعل العديد من المستمعين اليه ترتفع ضحكاتهم وهو يقلد صوتها الحاد وثرثرتها النسوية 'عبدالعزيز! عبدالعزيز! انظر الى هذا، وما هو رأيك في هذا؟'.

وربما كان ابن سعود الشيخ العربي الوحيد الذي سخر منها، وهو ايضا اول شيخ مهم تلتقيه في وسط غربي

ولبس ضمن ظروف المناطق البدوية، فهي اذا ما كانت قد زارته في خيمته في الصحراء، وهي ترتدي ثياب المساء، وقدمت له من هداياها منظارا وبعض الاسلحة، وان كانت جلست على السجاد معه وتحدثت معه بطلاقة ضمن ظروف وضعه وثقافته وتبادلت القاء القصائد وحكايات الصحراء، لكانت قد نالت اعجابه، فهي قد تمكنت بكل سهولة من نيل اعجاب العديد من كبار شيوخ العشائر في مناطقهم، وبدأت غيرترود بعدها في كتابة تقريرها وبعض هذه التقارير كتبته للمكتب العربي في القاهرة وبعضها الآخر مساهمات في مجلة 'اراب بولتين' وقد اضاف هذا العمل الى شهرتها، وكانت تدرك ان مقالاتها بدأت تحظى باستقبال جيد في اوساط القيادات السياسية العليا في الهند ومصر والسودان، ولندن لعرضها الواضح والذي قد يكون غالبا مسرحا للاوضاع السياسية وقد ادى ذلك الى اكتسابها شهرة بانها ربما تعتبر من ابرز الشخصيات البريطانية في الشرق الاوسط، وقد جمعت بعض مقالاتها في كتيب بعنوان 'اراضي ما بين النهرين العربية' الذي كان يوزع على الضباط والمسؤولين البريطانيين عند وصولهم الى البصرة.

فساد وسوء إدارة

وبدأت غيرترود تعمل بصورة وثيقة مع كوكس الى جانب ويلسون وبقية العاملين، حيث بذلوا الكثير من اجل استتباب الأمن والنظام في ولاية البصرة، وقدموا سياسات تعود بالفائدة في مجال الزراعة والقانون والتعليم، والحقوا الشيوخ المحليين ضمن عملية الحكم ودفعوا لهم الأموال مقابل الاشراف على حكم مناطقهم التقليدية، ولسوء الحظ فإن هذه المحاولة من أجل منح العرب حق تقرير مصيرهم احبطها الفساد وسوء الإدارة، وبات من الضروري بعث الإداريين البريطانيين للعمل الى جانب الشيوخ في المحافظات والمقاطعات النائية.

.. نحو بغداد

وتمكنت الحملة الشتوية بقيادة الجنرال مود من استعادة الكوت والشروع في التوجه نحو بغداد التي احتلتها القوات البريطانية في 11 مارس 1917، وانتقل مركز الثقل الى الشمال وانتظرت غيرترود استدعاء سير بيرس لها للانضمام اليه في بغداد لتأسيس النواة الأولى لهيئة سكرتاريته الجديدة. وجاء الاستدعاء وسافرت شمالا في النهر على متن باخرة مزدحمة في رحلة استغرقت تسعة أيام في جو حار ورطب مع اثنتين من الممرضات وستمائة جندي.

وكان هنالك الكثيرون مثل ارنولد ويلسون ممن ظلوا مقتنعين انه فقط عن طريق السيطرة البريطانية الشاملة يمكن تأمين امدادات النفط للاسطول البريطاني وللامبراطورية، كما كان هنالك أيضا اشخاص مثل هاردينغ ممن يعتقدون ان خلق نوع من أنواع الشراكة مع العرب سيقود الى الفوضى في الشرق الأوسط ويحرم الامبراطورية من تواصلها مع أوروبا والهند وبقية بلاد الشرق. وسوف يثبت خطأ هؤلاء، فعن طريق تركيبة من الادارة البريطانية وفق تقرير المصير للعرب وحفظ كبريائهم والحكم الصالح تحقق الكثير.

فالاستقرار استمر دون انقطاع حتى عام 1920، كما ان النفط استمر في التدفق، فالحساسية تجاه الافكار والتوجهات في الشرق الأوسط التي جلبتها غيرترود الى الإدارة، سوف تمكنها من تحقيق ما لم يكن اي احد يعتقد ان من الممكن تحقيقه، وكانت تلك المهمة الكبرى التي تنتظرها في بغداد.

مس بيل عاشقة الصحراء 11

إحلال السلام في العراق أصعب من القتال
العرب يتحدثون لغة واحدة وقلوبهم شتى



خدم غيرترود في حديقة منزلها مع كلبي الحراسة الهدية من فهد بن هدبال

ظلت غيرترود تتفكر لمدة أسابيع لحظة وصولها إلى بغداد، وكانت تتوق للعيش ثانية في هذه المدينة العظيمة التي تحتفظ فيها بالعديد من الأصدقاء، ونزلت من القارب الذي استقلته واتجهت الى حيث كانت سيارة كوكس بانتظارها، في المكتب، حظيت باستقبال حار من رئيسها وطاقم موظفيه ولم تكن تعرف اين ستمضي تلك الليلة. لكن بعد ان مكثت اثني عشر شهرا في غرفة واحدة في مقر القيادة في البصرة، كانت تأمل في مكان أوسع وأكثر هدوءا، واطمأنت حين علمت انه قد تم تخصيص منزل لها، وانطلقت بالسيارة قاصدة عنوان المنزل الذي كتبته على ورقة بيدها.

توقفت السيارة في بازار صغير مليء بالقذارة والضجيج، فخرج اليها المالك ليعرض عليها المنزل الذي لا تصله المياه وليس فيه أي أثاث، وكانت قد احضرت معها بعض قطع الأثاث من البصرة لكن لم تفرغها من القارب وبقي خادمها ميخائيل مع القارب ليحضرها معه.

وضعت قبعة من القش على رأسها وطفقت تبحث عن منزل أفضل، واتجهت الى ضفاف دجلة، حيث الخضرة والطقس الأكثر برودة، وعلى مقربة من المكتب السياسي في السفارة النمساوية قبل الحرب، ومرت بجانب جدار قديم يحيط بحديقة كبيرة مليئة بالأشجار والازهار، وحين دخلت عبر بوابة حديد رأت خزان مياه من الصخور وثلاثة منازل تلعب الطيور في فنائها والى جانبها حديقة من أشجار النخيل تمثل مكانا جميلا للتنزه فيها عند المساء.

ولدى السؤال والبحث مع الجيران، اكتشفت ان الحديقة تعود الى اقطاعي ثري تعرفه وتحبه.. انه موسى الجلبي، وحين زارته في منزله حلت كل المشكلات المتعلقة بتأجير المنزل، وامضت عشرة أيام في عمليات التغيير والترميم، وفي اوائل شهر مايو، انتقلت للعيش في هذا المنزل المؤلف من ثلاثة منازل في الواقع، وبدأت تنتقل من منزل الى آخر بين هذه المنازل الصيفية الثلاثة، وركبت فيها مطابخ وحمامات حديثة، وصبغت كل شيء باللون الأبيض واختارت مزارعا للعناية بالحديقة وطباخا، ورجلا كبيرا بالسن تعرفه وتثق به يدعى شاماو، لرعاية المنزل، ووضعت ستائر واقية من الشمس على النوافذ الجديدة، ونصبت المكاتب الخاصة بها وملأت الفازات بالزهور، وخصصت المنزل الأبعد لمعيشة الخدم.

وأخيرا، أصبح لغيرترود منزلا خاصا بها وحديقة، وجلبت انواعا من الزهور من بريطانيا وزرعتها في حديقة منزلها، بعد ان كانت غير معروفة أبدا في العراق من قبل.

الحاجة إليها أكثر

كان من النادر ان يمر عليها يوم بلا عمل، وأصبحت الحاجة اليها أكثر من أي وقت مضى، ولكن كان عليها ان تثبت نفسها ثانية، وحين تم تشكيل الحكومة في العراق، كتب كوكس يقول 'حين ابلغت وزير المستعمرات ان بعض طاقم موظفي مكتبي سيأتون من البصرة بمن فيهم الآنسة بيل (غيرترود)، عبر عن خيبة أمل شديدة لانه خشي ان يشكل ذلك سابقة غير ملائمة لمطالبات سيدات اخريات. لكني ذكرته ان خدماتها عرضت علي تحديدا من قبل سلفه، وانني اعتبرتها وعاملتها على قدم المساواة مع بقية طاقم موظفي مكتبي، وبأن قدراتها الخاصة قد تكون مفيدة جدا لي في الوقت الراهن. وقد وصلت في الوقت المحدد بالفعل وسرعان ما اقامت علاقات شخصية طيبة مع السير ستانلي مود.

وقد وصف كوكس اقامة هذه 'العلاقات الشخصية الطيبة' بأنها كانت بفضل غيرترود، لكنها كشفت عن مشاعرها الحقيقية لعائلتها بعد وفاة مود بالكوليرا بعد عدة اشهر على تعارفهما.

لقد كانت حملة مود العسكرية البارعة وراء احتلال بغداد وطمس مأساة الكويت من اذهان الجمهور، لكنه كان رجلا ذا خيال محدود، وجعل عمل المديرين اكثر صعوبة، ان رفض ووجود امرأة في عالم الرجال، حتى لو كانت امرأة موهوبة ومؤهلة مثل غيرترود، كان مصدر سخط من قبل غيرترود، وكانت تمقت مثل هذا التفكير

العسكري الذي كان عليها ان تواجهه - كامرأة - باستمرار. فالجيش يحتل الارض وتتولى الادارة السيطرة عليها. ولكن الصراع في العراق، من اجل تهيئة الظروف الملائمة للسلام والازدهار اثبت انه اصعب من القتال في ساحة المعركة.

لقد كان نصف بلاد ما بين النهرين يخضع لسلطة بريطانيا، لكن الاتراك كانوا يواصلون القتال في الشمال، وكان العرب يتحدثون لغة واحدة وقلوبهم شتى، ولم تكن بلاد ما بين النهرين دولة، بل مقاطعة من مقاطعات الامبراطورية العثمانية المتداعية. ولم يكن العراق دولة وكانت الاسماء تثير الاضطراب، ففي الغرب كانوا يطلقون على العراق الاسم اليوناني القديم 'بلاد ما بين النهرين'، اما في الشرق فيسمى 'العراق'. وكان اسم العراق يطلق على ولاية البصرة، ولكن عندما سيطرت عليه بريطانيا، استخدمت التسمية لوصف المنطقة التي تشمل ولايات البصرة وبغداد والموصل. وفي عام 1932 نال العراق استقلاله الكامل وحصل على الاعتراف الرسمي به.

مصاعب في كل الاتجاهات

اما في عام ،1917 فقد واجهت البريطانيين مصاعب عملية في كل الاتجاهات. وكان اكثر الحاجا نقص المواد الغذائية، ودمار انظمة الري بسبب الاهمال والحرب. فقد استنفد الجيشان المتحاربان كل مخزون المواد الغذائية، وعندما انسحب الاتراك الى الشمال، مارسوا سياسة الارض المحروقة واخذوا معهم كل شيء ثمين ودمروا واحرقوا كل ما لم يستطيعوا اخذه. وحتى الطقس، فعل فعله في تلك الايام، فلم تسقط الامطار لثلاثة مواسم متتالية، الامر الذي كان له اثره المدمر على حوض الفرات المعروف بالخصب، واصبح الناس يواجهون المجاعة والمرض. وانهار نظام الصرف الصحي في المدن، واصبح المستشفى الوحيد في بغداد في حالة مزرية ولم يبق فيه سوى بعض الجنود من ذوي الاصابات الخطيرة الذين يكافحون من اجل البقاء.

وفي الريف، اصبح الفلاحون يأكلون البذور بدلا من زراعتها، لان اي شيء كانوا يزرعونه كانت تتم مصادرته، المرة تلو المرة، ولم يكن احد يعرف الى من سيؤول حكم هذه البلاد، وما الضرائب التي ستفرض على الناس؟ وانتشرت حالة من الفوضى وغياب القانون والمجاعة، والاستياءالعام، واذا لم تتمكن الادارة من توحيد البلاد في الحال، واذا عمت الفوضى في ربوع بغداد والبصرة، فلن يتمكن جيش قوامه حوالي مائة الف جندي من فرض النظام في البلاد. وقد تفاقمت المشكلات الادارية بسبب نقص التمويل من حكومة بريطانيا وغياب التعاون العسكري حتى وصول السير وليام مارشال خليفة مود.

وعلى الرغم من هذه الصعوبات كان ثمة تصميم من جانب كوكس وطاقم موظفيه على اصلاح الوضع، وكرسوا جهودهم لاقامة حكومة جيدة وفاعلة لخدمة سكان ولايتي البصرة وبغداد، وكانت تلك هي الفكرة التي اثارت اعجاب غيرترود اكثر من اي شيء آخر. لقد ألقت البيروقراطية التركية بظلالها الكئيبة على طول وعرض بلاد ما بين النهرين من خلال سياسة 'فرق تسد'.

وحين تقهقر الاتراك دمروا كل السجلات وفر المنتفعون معهم. وخلفوا وراءهم العداوات التي عززوها عبر سنوات طويلة، فقد قاموا بتقسيم الاراضي على ضفتي نهر الفرات بين خمسين قبيلة ظلت تتصارع فيما بينها.

ولم يكن في مقدور الادارة البريطانية تشكيل حكومة بأي شكل، الا اذا حصلت على الدعم الموحد من العراقيين. ففي هذه البلاد التي يوجد فيها من الاعراق والمعتقدات والولاءات اكثر من اي وقت مضى، ربما تكون بحاجة الى اشراك كل الناس البارزين والقادرين على الاقناع لكسب تعاون الجميع، لقد كان على بريطانيا اقناعهم بفوائد المبادرات الاقتصادية الجديدة. وقد جاء الوجهاء من مختلف انحاء العراق من البوادي والمدن ممن يشعرون بالاحباط والظلم لدرجة العداء مع جيرانهم، الى السكرتاريا.

وكان هؤلاء يتمتعون بالنفوذ وفقا لما يملكون من ثروة او انصار او ملكية اراض فرضها الاتراك او تمت السيطرة عليها في الحروب بين القبائل او بالارث. وكان كوكس وغير ترود من اكثر المتفائلين بامكانية العثور

على حكام العراق والمديرين المستقبليين، على الرغم من كل الصعوبات.

خلاف حول تقرير المصير

وخلال ربيع وصيف عام 1917، كان الجيش البريطاني الهندي مشغولا بتعزيز مواقعه حول بغداد، وكان الأتراك ينشرون الدعاية المناهضة للبريطانيين. وكانوا يغدقون الاموال على المعارضين او الذين يمكن استمالتهم لمناهضة بريطانيا. وكان من الصعب على القبائل ان تصدق ان المحتلين الجدد لبغداد سيواصلون احتلالها، او ان الاتراك لن يعودوا للانتقام من كل الذين وضعوا ثقتهم بالبريطانيين، وكانت اولى، الاقتراحات التي قدمها شيوخ ووجهاء بلاد ما بين النهرين هي عبارة عن مبادرة للتحالف مع بريطانيا مقابل حصولهم على حق تقرير المصير، ولكن هذا التعبير بالغ الغموض في ذلك الوقت. وكان ذلك يعني، بالنسبة للمجاهدين الشيعة، دولة دينية تطبق فيها الشريعة. اما بالنسبة للسنة وأصحاب الفكر التحرري في بغداد، فكان يعني دولة عربية مستقلة تحت حكم أميري.

وبالنسبة للقبائل، كان يعني عدم وجود حكومة على الاطلاق. وكان نقص المواد الغذائية من الاسباب التي دفعت القبائل للمشاركة في الادارة، وقد رحبت بهم غير ترود وبشدة، بصرف النظر عن ماضيهم السياسي والشخصي. وحين قابلوا غيرترود وكوكس وجها لوجه، كان يتعين اقناعهم ان الادارة البريطانية ستكون خيرة وانها ستحفظ حقوقهم وان بريطانيا تستعد للقيام بجهود كبيرة وانفاق الاموال على مشاريع في العراق من اجل تحسين الاوضاع المعيشية.

وقد قوبلوا بالترحاب وتم الاستماع الى مطالبهم وتفهمها، وبدأ الكثير من زعماء القبائل يتوافدون على السكرتاريا لتقديم مطالبهم الخاصة، وفعل ذلك ايضا كثير من التجار والمزارعون وملاك الأراضي ومستوردي التبغ والمصدرين ورجال الاعمال ورجال الدين والوجهاء من كل اطياف المجتمع العراقي، وذلك من اجل اقناعهم بدعم النظام. وكان يتم توزيع الهدايا عليهم واقناعهم بالموقف الرسمي، وكان يتم الدعوة لكل من لم يحضر بنفسه من الوجهاء والزعماء المحليين، وكان يتم التركيز على رجال الدين ومتابعة الدعوة اليهم اذا لم يحضروا من كونهم.

فمن كان هناك غير غيرترود ومن كان يعرف او يعرفه الكثيرون منهم، ومن كان يحدد وضعهم واهتماماتهم، ومن كان يقابلهم ويتحدث معهم بلغتهم وحتى بلهجتهم، ومن كانت لديه القدرة على التقييم وطمأنتهم؟
وربما لا يوجد اي شخص غربي يضاهي غيرترود في فهم تاريخ وعادات البلاد، فقد كانت خبيرة في البدو.

من جيل إلى جيل

لقد عرفت الجيل الجديد من البدو الذين بدأوا يتاجرون بالحنطة والبضائع التي يجلبونها من قلب الصحراء. ومن بين اصدقائها من ظل يعيش حياة البداوة ومنهم من استقر، ومنهم من اخذ يقسم عامه بين البداوة والاستقرار. وتابعت بعضهم يتحول الى تاجر كبير ويتعلم التلاعب بالسوق والاقتصاد مع اتساع حجم المدن وزيادة اهميتها.

وانشأت علاقات صداقة مع الحرفيين المسيحيين والكتبة والتجار الذين اتوا من جنوب روسيا والبحر المتوسط. وسافرت الى القبائل التي تعيش في المناطق الجبلية في الشمال، الذين تخلوا عن الغزوات والحروب وتأقلموا مع الزراعة. وتأثرت بكرم الضيافة الذي حظيت به من قبل الاكراد ولاحظت المزيج المتفجر من الاعراق والاديان في الشمال الذي يعيش فيه ايضا الارمن والسريان والاتراك والفرس. وفهمت الخطوط الوراثية للعائلات العربية، وعرفت كيف تتعامل مع رجل الدين السني (المجتهد) والملا والمختار والمتولي.

وكانت غيرترود بالنسبة للناس الذين يصطفون في الدور خارج مكتبها، اكثر من مجرد مديرة في الادارة الاستعمارية البريطانية. لقد كانت تحظى بثقتهم فلم يسبق لها ان كذبت عليهم على الاطلاق، وكانت تعاملهم

باحترام وكذا اسلوب حياتهم. وكان يطلق على بيرسي كوكس لقب 'كوباس' اما غيرترود فكانت تسمى 'خاتون'، او اميرة الصحراء وكان الجميع يود مقابلتها عن قرب والحصول على تبريكاتها. واستغلت لقاءاتها بالناس ليس لتعزيز الثقة بالادارة فحسب، بل من أجل تعزيز الاستقرار والسلم والرخاء وتحسين العلاقات بين الناس.

لكن مع من؟

وقد وصل الى بغداد فهد بن هدبال الذي كان من اشد المعجبين بغيرترود. وكان شيخ كونفدرالية قبيلة عنزة في شمال غرب مدينة العمارة، وكان هدفه الاهم من هذه الزيارة الحصول على 'طقم اسنان' ولدى وصول هدبال كان رونالد سكورز الصديق الوثيق لغيرترود في زيارة الى بغداد، ولاحظ اللقاء الودي بين الرجل وغيرترود فابلغ كوكس عن خطورة تأثير هذا الشيخ على غيرترود.

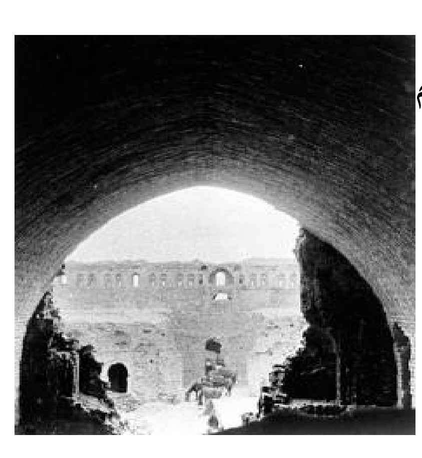
وكان هذاالشيخ واحدا من البدو المستعدين للتحول الى الحياة العصرية. لقد كان يمتلك حدائق شاسعة من النخيل بالقرب من كربلاء كانت تدر عليه دخلا جيدا، لكنه كان يقسم عامه بين نمطي حياة الزراعة والبداوة. وقامت بزيارة مجاملة له في الصحراء في طريق عودتها الى دمشق من حائل في عام 1914، وكادت تحضر احدى غزواته الكثيرة ضد قبيلة شمر الموالية لتركيا. وقد قابلها بترحاب واحسن وفادتها وتقول انه عاملها معاملة ابوية، وانه كان يسعدها ان تجلس معه. فقد جلسا على سجادة جميلة في خيمته واعجبت بالصقر الذي كان يحتفظ به وتقول انه عرفها على آخر زوجاته وابنه منها. وفي الليلة التالية رد لها الزيارة في خيمتها وقد رافقه عدد من الخدم الذين حملوا اطيب الاطعمة التي كانت تحبها واستمتعت بها لاشهر عدة، وقد تبادلا الاحاديث في امور كثيرة اهمها السياسة.

وابلغها ان ضباطا اتراك والمان حاولوا كسب تأييد قبيلة عنزة من خلال اكياس من الذهب، وطلبت منه ان يبعث برسالة الى ابنه في الصحراء ليطلب منه منع قوافل العدو من عبور مناطقهم ووقف كل اشكال التجارة معهم. ورتبت لعقد له بينه وبين كوكس وويلسون.

وبعد ان ركب طقم الاسنان الجديد عاد الى الصحراء ثانية، ولكن قبل مغادرته اخذته الى قاعدة جوية في بغداد حيث رأى للمرة الأولى في حياته- الطائرات وشاهدها وهي تقلع. ثم اخذته الى احدى الطائرات الجاثمة على الارض لتفقد الكابينة.

مس بيل عاشقة الصحراء 12

بيل تعيش على راتب شهري 20 دينارا أما المكافآت فمحولة إلى لندن
مدرس وحيد في الديوانية لا يعرف القراءة والكتابة



بقدر ما كانت مس بيل تحب العراق وشعبه، بقدر ما كان الطقس غير ملائم لها وعانت صحيا منه، فقد كانت درجات الحرارة ترتفع كثيرا صيفا وتنخفض كثيرا شتاء إلى درجة ان السكرتارية اضطرت الى ان يكون لها مقر في الصيف وآخر في الشتاء. وكانت غيرترود تستمتع على نحو خاص بالإقامة في المقر الشتوي، حيث الشمس المشرقة والفناء المفتوح، وقد جعلت غيرترود من مكاتبها أماكن جميلة ليس فقط لانها احبتها، بل ايضا بسبب السيل العارم من الزوار الدائمين لها.

لم يكن الاعضاء الستة الذين يديرون الحكومة مع كوكس من غير

المختصين في الشؤون العربية والذين لا يعرفون الكثير عن العراق. ولعدم اطلاعهم على حياة الناس واحتياجاتهم، كان اعضاء الحكومة يقدمون تقاريرهم في هذه المرحلة الى رئيس اركان الجيش في بلاد ما بين النهرين، ثم الى مكتب الهند في لندن، كانت ثمة حاجة إلى اسناد بالرجال والمال من الحكومة البريطانية ومكاتبها في القاهرة ودلهي والخرطوم ولندن.
وكانت ثمة حاجة لاقامة علاقات ودية مع مملكة ابن سعود التي برزت الى الحياة حديثا، ومع مشيخات الكويت والمحمرة.

العقل المدبر

وكانت الحدود الشرقية وحكومتها غير المستقرة، ممزقة بسبب غدر القبائل، وفي الغرب، كان البريطانيون يحاولون حل مشكلات الحدود مع سوريا. وكانت كل ادارات الحكومة الجديدة منشغلة في وضع سياسات تلائم الوضع الداخلي والظروف على الارض. وفي الوقت ذاته، تبرير هذه السياسات امام كل من دلهي ولندن وللقيادة العسكرية في الداخل.

وكانت غيرترود تعتبر العقل المدبر لكل الاتصالات، وكانت في بعض الاحيان تكتب سبع مقالات في وقت واحد، وكانت تذكر مكتب الحرب، كلما كان ذلك ملائما، بالوعود التي قطعها للعرب وبالتزامه بدراسة رفاهيتهم. واصبحت حياتها مكرسة لايجاد سبيل لتنفيذ تلك الالتزامات، وهو الامر الذي سيكون مفيدا لبريطانيا والغرب والعالم اجمع.

وسام الإمبراطورية

وفي شهر اكتوبر ،1917 حصلت على وسام الامبراطورية البريطانية، وعلمت عن ذلك لاول مرة من خلال رسالة لهيود فلورانس، ثم تبع ذلك تهنئة من السير ريجنالد وينغيت، المندوب السامي البريطاني الجديد في مصر، وسيل من التهاني والتمنيات من الاصدقاء والزملاء.

وربما رأت غيرترود الكثير من الادارات في اوروبا والشرق الاوسط العاجزة عن الاعتراف رسميا بقدراتها. والحقيقة انها اعتقدت ان كونها امرأة، لا علاقة له بالقدرات ولذلك، لم تعبأ كثيرا لنيل جائزة اخرى في مارس 1918 هي 'ميدالية الجمعية الجغرافية' عن رحلتها الى حائل. وعلى الرغم من ان الرحلة لم يمض عليها اكثر من اربعة اعوام، الا انها بدت بالنسبة اليها، وكأنها تعود الى ماض سحيق.. الى حياة أخرى.

في الوقت الذي وصل فيه البريطانيون الى العراق، لم يكن قد تبقى لديهم المال او الارادة او القوة البشرية او الموارد لخوض الحرب. وكانت أهدافهم الرئيسية الحاق الهزيمة بالاتراك وحلفائهم الالمان وحماية المصالح النفطية البريطانية.

وحين تم تدمير الجيش التركي، تمكن البريطانيون من الانسحاب الى معقلهم في البصرة لتأمين ايرادات النفط وتركوا بقية السكان ضحية للفوضى والجوع، وقد دافع عن هذا النهج بقوة مسؤولو الحكومة البريطانية في نيودلهي ولندن بمن فيهم وينستون تشيرشل الذي كان يشغل منصب وزير الذخيرة وسرعان ما اصبح وزيرا للمستعمرات.

الإجازة الممنوعة

لا عجب في انها كتبت لعائلتها غير ذات مرة بأنها لا تستطيع اخذ اجازة. فقد كانت تمثل الضمانة لتماسك الادارة البريطانية في العراق. فقد كتب عنها كوكس ذات مرة ان 'كل افراد وسياسات المجتمعات المحلية كانت على اطراف اصابعها'.

ولدى دخول بغداد، وجد الجيش البريطاني الجثث متناثرة في الشوارع والازقة ومليئة بالفئران ونظام الصرف الصحي مدمر والمياه نادرة وانتشرت الكوليرا على نطاق واسع. وبدأت عملية اعادة بناء المدينة، ومع حلول منتصف 1918، كان هناك مركز صحي عند كل محطة عسكرية. وفي عام 1919 وصل عدد المراكز في المدينة الى خمسين. وانتشر الطاعون في بغداد في ذلك العام، ووفرت الادارة التطعيم لثمانين الف شخص وتمكنت من السيطرة على المرض. وتم بناء مستشفى جديد للعزل الصحي وبنيت وحدة لأشعة اكس ومستشفى للنساء ومعهد لطب الاسنان. ولكن الادارة الصحية واجهت مشكلة وعبئا تمثل في جثث الموتى من خارج العراق، التي يتم احضارها لدفنها في مدينتي النجف وكربلاء. وكان الاتراك يقومون بعملية فحص لهذه الجثث قد تطول لثلاثة اشهر على الاقل، حتى يتم السماح بدفنها.

نقص المواد الغذائية

لقد كانت بغداد والبصرة تعيشان في ظل نقص حاد في المواد الغذائية. وفي الموصل شمالا، حيث كان الاتراك لا يزالون يسيطرون على المنطقة، مات عشرة آلاف شخص جراء المجاعة في شتاء 1918-17. وادى قطع الطريق الى بغداد - حتى تمكن البريطانيون من احتلال الموصل في شهر اكتوبر - الى قطع كل الامدادات من القمح والفواكه والخضروات الى بغداد، ولحق الدمار بكل المزروعات على ضفاف دجلة. وكانت تجري معارك حول مدينة بلد ومنطقة الاسطبلات التركية في الوقت الذي حان فيه وقت الحصاد، فأكل الجيش التركي ما اكل واحرق ما لم يستطع اكله، قبل ان ينسحب.

محاكم منهوبة بلا قضاة

لقد كان الرجل المطلوب لمنع وقوع المجاعة وجعل البلاد تقف على قدميها مرة اخرى، هو هنري دوبس الذي وصل لتوه الى البصرة، وكان يشغل منصب مفوض الايرادات الآتي من ادارة شؤون الموظفين في الهند.
وجاء ادغار بونهام كارتر، الذي اصبح فيما بعد السير ادغار، من الادارة القانونية في السودان ليعين رئيسا لهيئة القضاء الأعلى، ثم مسؤولا للقضاء في بغداد، وكانت فكرة غيرترود عنه انه رجل يتحلى بالادب ويلتزم بالرسميات، فاستقبلته باخلاص، وحين وصل البريطانيون الى بغداد وجدوا ان المحاكم معطلة وقد تعرضت مبانيها للنهب، وقد هجرها القضاة وطاقم المحاكم الاتراك، والملفات قد اختفت، ولدى دراسة الوضع، في محاولة لإصلاحه، خلص بونهام كارتر الى نتيجة مفادها ان النظام القضائى فشل على كل المستويات.

وكان التغيير الاول الذي ادخله، اعتماد اللغة العربية لغة رسمية لكل الاجراءات القانونية، من النزاعات المدنية الى القضايا الجنائية وحتى الاحوال الشخصية، وفتحت محكمة للقضايا الصغيرة واخرى للاحوال الشخصية التي تعمل وفقا للشريعة الاسلامية، وتم فتح 30 محكمة شرعية اخرى، لكن الشيعة طالبوا بمحاكم خاصة بهم، ومنذ ذلك الحين بدأت القضايا الشيعية تنظر امام محاكم شيعية، كما اليهود او المسيحيين ولكل منهم محاكمهم وقضاياهم.

تعليم البنات

وبالنسبة لتعليم البنات، نظر المجتمع بعين من الشك الى حفنة مدارس البنات التي كان ينوي رجال التدريس فيها، وراعت بريطانيا هذه الحساسيات، وتعجلت استبدال مدرسات بالمدرسين، وتم فتح خمس مدارس للبنات، وكانت تواجه المسؤولين مشكلات غريبة في الاقاليم النائية، فقد اكتشف ان المدرس الوحيد في الديوانية لا يجيد القراءة والكتابة، وتم وقف مشروع التعليم الكردي بسبب غياب القواعد والاملاء، ومن اجل الغاء المبدأ التركي، الذي كان يقوم على تشجيع السنة فقط على التعليم، رحبت ادارة التعليم بالطلاب من كل الوان الطيف وتلقوا تعليمهم العربي، ووجهت الدعوة للسنة والشيعة واليهود والمسيحيين لدخول المدارس.
واكتشفت الإدارة البريطانية ان ادارة الاوقاف من اكبر ملاك الأراضي في بلاد ما بين النهرين، ومع ذلك ترك الأتراك خزينتها خاوية. وتمت إعادة ترميمها وتسجيلها تحت الإدارة القانونية الجديدة.

وقد كتب همفري بومان مدير التعليم يرسم صورة طيبة لغيرترود في بغداد في ذلك الوقت، توضح المكانة الاجتماعية التي كانت تتمتع بها في المجتمع العربي، وكان ارتداء الملابس الأنيقة أمرا صعبا بالنسبة لغيرترود، إذ كان يتعين عليها أن تفيق عند الفجر لاعداد ملابسها بنفسها، في حين تعمل وسط مجموعة من الرجال الذين يجدون من الخدم من يغسل لهم ملابسهم ويكويها ويعدها للاستخدام كل يوم. بينما كان يتعين عليها في ظل درجات الحرارة اللاهبة أن تبدل تنورتها ثلاث مرات يوميا.

.. الراتب والمكافأة

وكانت غيرترود تعيش في الشرق على راتبها الذي يبلغ 20 جنيها شهريا، بينما كانت العلاوات والمكافآت السنوية تتراكم في حسابها هناك في لندن.

وكان لقسوة الطقس في الصيف وفي الشتاء أثره على غيرترود وكانت تصاب بالملاريا بشكل متكرر. وكانت تأخذ سريرها إلى السطح في الصيف من شدة حرارة الغرف. ولم تكتف بذلك، بل كانت تبلل قطعة من القماش بالماء وتلفها حول جسدها قبل أن تنام، وحين كان القماش يجف كانت تصحو من النوم لتعيد تبليلها وتنام. وفي الشتاء، كانت ترتدي احيانا، فستانين فوق بعضهما وفوقهما جاكيت من الفرو. وبسبب عملها المتواصل ليل نهار، اصبحت نحيفة جدا.

لقد تمكنت قوة الكشافة الهندية من طرد الاتراك من بغداد ومناطق الشمال، ولكن في منتصف عام ،1917 كانت لا تزال تدور معارك في الشمال بهدف طرد الاتراك من ولاية الموصل ومن الحدود مع سوريا. وكان الاتراك لا يتركون شيئا يستطيعون عمله من الاراضي التي ينسحبون منها. وكانت الجيوش البريطانية المتقدمة عرضة للهجمات على انظمة الاتصال والري التي يقيمونها، وكان الاتراك ينقضون على اي منطقة يرون ان الجيش البريطاني عاجز عن بسط سيطرته عليها.

وفي كربلاء، اكتشفت غيرترود ان الشيوخ الذين كانوا يديرون الادارة فيها بشكل مؤقت، كانوا يتاجرون مع 'العدو' عبر الصحراء، فتم عزلهم. وساعد فهد صديق غيرترود واتحاد عنزة في وقف هذه التجارة. وفي مدينة النجف، ادى نقص الغذاء الى وقوع اضطرابات بتحريض من الاتراك. ولكن الامور سارت باتجاه البريطانيين بفضل الشيعة الذين اغضبتهم طريقة الاتراك في التعامل مع المدن المقدسة بينما حافظ البريطانيون على حرمة الاماكن المقدسة، واستعادوا النظام والقانون اليها. لكن ظلت مدينتا النجف وكربلاء مركزا للاضطراب السياسي.

وقد وفر الجيش البريطاني، في شتى انحاء العراق، سوقا غير محدودة للعمالة والمنتجات المحلية. وكان الجنود البريطانيون - على العكس من الأتراك - يدفعون ثمن ما يأخذونه. وكانت ولايتا البصرة وبغداد تتمتعان بمستوى من الرخاء لم تعرفاه تحت الحكم العثماني.

وكانت غيرترود الوحيدة من طاقم موظفي الادارة البريطانية في بغداد على دراية بالتعددية العرقية والدينية في مناطق شمال وشرق وغرب الموصل. ففي الجبال تعيش غالبية كردية، وفي الغرب باتجاه الصحراء يعيش اليزيديون، الذين نالوا اعجاب غيرترود. وذكرت في مذكراتها ان اليزيديين وفروا الحماية في عام 1915 لبعض اللاجئين الارمن. بالاضافة الى القبائل الكردية، كانت هناك بعض القبائل المسيحية من الكلدانيين والاشوريين واليعاقبة والنسطوريين على الضفة اليسرى، من الفرات، كانت تعيش تجمعات دينية سرية اضافة الى اليهود. وكانت قبائل الشمر المناهضة لعنزة، تفرض هيمنتها على المنطقة وتحظى بدعم الجيش التركي. وكانت تهاجم القوافل وتفجر القنوات والجسور والطرق وتنهب كل ما تستطيع نهبه.

وفي شهر سبتمبر ،1918 نقل كوكس الاداري المعروف بأنه الاكثر كفاءة من بغداد الى طهران.
وفي تلك اللحظة الاكثر تفجرا في تاريخ العراق، تم تعيين غيرترود مساعدة لنائب كوكس السابق المعروف بتكتيكاته القاسية وإجراءاته العقابية الشديدة ضد المعارضين وتفضيله للسياسات الامبريالية.

هذه التطورات هي التي اوصلتها الى الحقيقة المرة، ان لا تعاطف لديه مع سياسة حق تقرير المصير وانه يبذل قصارى جهده لإعاقة الشعوب عن ممارسة هذا الحق. فقد وضع ذلك ظلالا من الشكوك حول حلمها بأن تتمتع شعوب المنطقة، بهذا الحق.. حق تقرير المصير.

مس بيل' عاشقة الصحراء - (13)



حياة متقاربة بين فيصل وغيرترود
وحشية الأتراك تفجر 'الثورة العربية الكبرى

الأمير فيصل

في شهر مايو عام 1885 وحينما كانت غيرترود في السادسة عشرة من عمرها، ولد طفل سمي فيصل في قصر والده في مدينة الطائف بالحجاز، ومن كان يتوقع ان تجمع الايام لاحقا فتاة من يوركشاير وابن شريف مكة، او ان صلة ما ستجمعهما في يوم من الايام؟

فيصل كان الابن الثالث للشريف حسين وقد اخذ فيصل من امه الى الصحراء بعد ايام من ولادته، كي يترعرع على حياة البداوة حتى بلغ السابعة من عمره، ولكنه لم ير والدته بعد ذلك ابدا، فقد توفيت وهو في الثالثة من عمره، وفقدت غيرترود والدتها ايضا في مثل هذه السن.

شك.. واحترام

وعاش فيصل، مثل شقيقيه علي وعبدالله في خيمة سوداء، وتعلم فنون القتال والمشاركة في الالعاب القاسية، التي ادت الى كسر ذراعه ذات يوم وتركت علامة في جبينه. وكان السلطان العثماني عبدالحميد الثاني ينظر الى الهاشميين بمزيج من الشك والاحترام، وكلما كان يزيد نفوذهم كان يستدعيهم الى القسطنطينية ويضعهم تحت 'الاقامة الجبرية المشرفة' وهذا ما حدث مع الشريف حسين الذي عاش تحت الاقامة الجبرية هناك لمدة ثمانية عشر عاما'. وفي عام 1891 وحين لم يكن عمره يتعدى السادسة انفصل فيصل عن قبيلته البدوية وانضم الى والده في القسطنطينية.

لقد كان الشريف حسين سلطويا مع ابنائه، لدرجة اعتقاده بأنهم يجب الا يستمتعوا بالحياة المرفهة الفاخرة، وكان يشغل العديد من المناصب العثمانية التقليدية، لكن دخله ظل متواضعا، ولم يكن بوسعه توفير اللحمة لعائلته سوى لمرة واحدة في الاسبوع. وكان يفرض نظاما صارما على ابنائه، لا سيما تعلم ضبط النفس، وحرص على تعليم ابنائه وجلب المدرسين الخصوصيين لهم، وكانت الاجواء السياسية مشحونة للغاية وكانت الحياة حافلة بالاخطار.

مع الجيش التركي

وفي عام 1903 وحين كان يبلغ الثامنة عشرة من عمره، بدأ فيصل يتعلم تكتيك واستراتيجية الجيش التركي الذي تدرب على النمط الالماني، وكان يتألف من عناصر اتراك وعرب.

وفي الوقت الذي وصلت فيه غيرترود الى اليابان بصحبة هيو ضمن جولة عالمية، كان يتم ارسال فيصل الى الصحراء للقيام بدوريات للحراسة، وبعد عدة سنوات استدعي هو وشقيقه عبدالله الى القسطنطينية، فقد طلب الاتراك من الحسين اخماد ثورة للقبائل العربية في منطقة عسير، وقاد عبدالله القوات التركية وقاد فيصل الفرسان العرب على ظهور الجمال، وخاضوا معركة ميئوسا منها، ولم يعودوا الا بسبعين رجلا من اصل ثلاثة آلاف مقاتل، وبعد اسبوعين، عاودوا مهاجمة المتمردين، واستمرت المعركة يومين وليلة واحدة ونجحوا في كسر ظهر المتمردين، لكن الانتصار كان باهظ الثمن، فقد تقلص جيش الشريف حسين من سبعة آلاف مقاتل الى الف وسبعمائة مقاتل فقط. ولم يتمكن فيصل وعبدالله من منع الاتراك من حرق القرى، وقتل الابرياء والتمثيل بجثثهم، الامر الذي اثار حفيظة الشريف حسين وولديه وقاد في نهاية الامر الى تمرد الحسين ضد الاتراك، الذي اصبح يعرف ب 'الثورة العربية الكبرى'.

العودة إلى مكة

وحصل الشقيقان على منصبين في البرلمان التركي، فقد اعطي عبدالله تمثيل مكة وفيصل جدة، وتغيرت احوال العائلة مرة اخرى مع ثورة 'جمعية تركيا الفتاة' و'لجنة الاتحاد والترقي'، اللتين كانتا تهدفان الى تحديث الدولة. وفي عام ،1909 اطيح بالسلطان عبدالحميد وعين مكانه سلطان جديد اعلن نفسه خليفة للمسلمين، ومنح الشريف حسين لقب امير مكة، وكانت مهمته الرئيسية خدمة الاماكن المقدسة في الحجاز والاشراف على الحج. وعاد الى موقعه في مكة والطائف وامر ولديه بالاحتفاظ بمركزيهما في القسطنطينية وابلاغه عن اية تغييرات في المواقف السياسية.

الاقتراح بقيام تحالف بين العرب والبريطانيين، طرح للمرة الاولى قبل الحرب حين كتب اللورد كيشنر للشريف حسين، وقد تنقل عبدالله مبعوثا عن والده، بين مكة والقسطنطينية وتوقف في القاهرة للتحادث مع اللورد كيشنر وسكرتيره لشؤون الشرق رونالد ستورز، ووصلت الامور الى حد المواجهة حين طلب الاتراك من حسين باعتباره اميرا لمكة، ان يعلن الجهاد ضد المسيحيين، ولكن الحسين رفض ذلك متعذرا بأن للاتراك انفسهم، حليفا مسيحيا، هو المانيا.

وبدأ فيصل الآن يضطلع بالدور الاكثر خطورة، كجاسوس لوالده، وارسل الى دمشق سرا لاقتراح القيام بثورة عسكرية ضد الاتراك في سوريا، بينما تولى شقيقه علي جمع القوات العربية في الحجاز تحت ذريعة مساعدة الأتراك.. وكان فيصل ووالده يتصلان معا بطرق سرية من خلال اناس يحظون بالثقة ويحملون الرسائل المتبادلة بينهما، لقد كان بإمكان اصدقاء فيصل في المجتمعات السرية المتمثلة بالأندية السياسية العربية القومية، خيانته في اي وقت وكان في وضع ضعيف، خاصة حينما اجبر في دمشق على ان يحل ضيفا على جنرال يدعى محمد جمال باشا، وقد توقع هذا الجنرال التركي ان يقود فيصل، وهو ضابط في الجيش التركي، القوات التي جمعها شقيقه علي في الحجاز، لكن جمال باشا كان متشككا في فيصل لأن والده رفض اعلان الجهاد ضد اعداء تركيا، وظل يضعه تحت الاختبار باستمرار. فقد كان يستدعيه لحضور اعدام العشرات من اصدقائه السوريين، وقد صعد هؤلاء الرجال الشجعان الى المقصلة دون ان يطلبوا العفو بمساعدة فيصل، الذي كان يبذل قصارى جهده كي لا يظهر عليه الشعور بالغضب والاشمئزاز، وكما كتب لورانس في كتابه 'دعائم الحكمة السبع'، فإن فيصل 'انفجر مرة واحدة ولم يتمكن من السيطرة على مشاعره قائلا ان 'هذه الاعدامات ستكلف جمال باشا الثمن الذي ظل يحاول تفاديه'.
وفي هذه الاثناء، اعلن رئيس الوزراء التركي، استجابة لشروط الشريف حسين للتعاون مع تركيا، أنه إذا أراد أن يرى ابنه ثانية، فعليه أن يطلب منه الانضمام الى القوات في الحجاز.

فيصل وبيل

وكانت حياة كل من غيرترود وفيصل تتقارب، ففي الوقت الذي كان يخاطر بحياته في مهمة بدمشق، كانت تزور تشارلز هاردينغ في الهند باجندة سرية، هي تنيه عن معارضته للثورة العربية وفي يناير 1916 حتى كانت مجوعة من القوميين العرب تخضع للتحقيق، لاحظ جمال باشا ان فيصل يحاول انقاذهم بكل ما اوتي من قوة، وكانت تلك المرة الوحيدة التي كشف فيها عن مشاعره. وكان فيصل يدرك ان خطوة خاطئة واحدة ستكون نهاية مهمته، البحث عن الاستقلال للعرب. وابلغه حسين الآن، ان الوضع كان مهيأ للثورة، لكن فيصل كان يعتقد ان الظرف لم يحن بعد، اما والده العنيد والمسيطر دائما، فقد استدعاه الى المدينة المنورة حالا للانضمام الى القوات.

خيبة أمل

لقد كان فيصل متمنعا، لكنه مطيع، فطلب من مسؤوليه الاتراك المغادرة كي يتفقد القوات في المدينة المنورة التي من المفترض انها ستكون في مقدمة القوات التركية على الجبهة، ولكنه اصيب بخيبة أمل حين اعلن جمال باشا انه واينفر باشا الضابط الشاب القائم باعمال رئيس اركان الجيش التركي سوف يرافقه الى المدينة لتفقد القوات.

وابتدأت التمثيلية، فقد كان عليه وفقا لاصول الضيافة العربية ان يمنع القوات من اطلاق النار على الرجلين، وفي الوقت ذاته، كان عليه طمأنتها ان هذه القوات كانت عبارة عن متطوعين للحرب المقدسة ضد الكفار. ولو كان جمال باشا يعلم ما يحاول في الظلام لاعتقل فيصل ووالده الشريف حسين وابناؤه الآخرون ولقضي على الثورة في مهدها.

انطلاق الثورة

في الثاني من يونيو ،1916 جلس الشريف حسين على شرفة قصره في مكة وقد وضع بندقية على كتفه، واطلق الرصاصة الاولى إيذانا ببدء الثورة العربية الكبرى. وفي الوقت الذي اوكل لولديه عبدالله وزيد مهمة طرد الاتراك من الطائف وجدة ومكة واوكل لفيصل وعلي المهمة الاصعب، طرد القوات التركية من المدينة المنورة بعدد قليل من القوات سيئة التجهيز مقارنة باثنين وعشرين الف جندي تركي من حصنهم في المدينة. ولم تتمكن قوات الشريف حسين من احتلال مكة، لكنها اتبعت استراتيجية في ما بعد، نجحت من خلالها في عزلها عن بقية الجيش التركي، وخرج الامير فيصل من المعارك وقد حاز حب رجاله الذين بدأوا ينادونه ب 'سيدنا فيصل' وحظي باعجابهم لشجاعته.

لقد وجه الاتراك سهام انتقامهم الى بلدة العوالي القريبة من المدينة ويقول لورانس ان الاتراك: ذبحوا كل حي بين جدران هذه البلدة واحرقت المنازل وتم اختطاف المئات والقاؤهم وسط النيران احياء وامواتا'، وتردد صدى هذه الصدمة في كل ارجاء الجزيرة العربية وعمق مشاعر الكراهية في أوساط القبائل العربية ورسخ إصرارهم على الصمود. وكتب لورانس عن قواعد احترمها العرب في القتال مثل عدم ايذاء النساء والاطفال وعدم تدمير الممتلكات ، في حين كان الاتراك يجزون رقاب الاسرى، اما فيصل فكان يدفع جنيها واحدا عن كل اسير يسلم اليه حيا.

مساعدة بريطانيا

لقد ولد فيصل قائدا، فقد تمكن بحنكته وكاريزميته من السيطرة على القبائل العربية، كما استطاع توحيد قبائل كانت بينها عداوات وحروب مثل بيلي وجهينه ومثل عتيبة وعجيل، فقد اقنعها بحقن دمائها ومساعدة قواته، لقد ارسل الشريف حسين الاوامر للقوات، لكنه لم يرسل لها سوى القليل من الطعام والمال. كما تبين ان المساعدات البريطانية كانت اشبه بالنكتة السمجة.

فلم ترسل بريطانيا له سوى حفنة من الرجال من السودان واربع بندقيات صدئة من طراز 'كروب' ليست صالحة للاستخدام. وقد تعين على فيصل ان يسافر مصطحبا معه عددا من الأحجار الكريمة لاقناع رجاله بأن لديه الذهب الذي سيمكنه من دفع الاموال لهم. وغادر لورانس وهو يعد بمزيد من الامدادات والمتطوعين والبنادق الجبلية والخفيفة. بقدر ما يستطيع. وسيقوم البريطانيون بتوصيلها الى ميناء ينبع على البحر الاحمر الذي سيصبح القاعدة التالية لفيصل.

طريق مسدود

ووصل القتال ضد الاتراك الى طريق مسدود. وكان يمكن للقوات التركية في المدينة ان تتحرك من محميتها في اي وقت، باتجاه مكة جنوبا، وتحقق نصرا حاسما. ولم يكن البريطانيون يثقون بخطتهم تمركز قوات في بلدة رابغ وقطع الطريق بين المدينة ومكة. واقترح لورانس حلا هو شن حرب عصابات من قبل مجموعة صغيرة من المقاتلين العرب يدعمهم خبراء بريطانيون وجاءت هذه الخطة بالرغم من ضعف حظوظ نجاحها، كون مقدمها لا يتمتع بالخبرة العسكرية الكافية، فانها لقيت الترحيب كمخرج لاشهر من التباطؤ في اتخاذ القرار، يستحق التجربة.

ولما عاد لورانس الى ينبع وجد فيصل في احد الاودية خلف ينبع، وكان الوادي يعج بالفوضى والعرب والجمال، وكان الوقت ليلا، وكان الامير فيصل يجلس على سجادة مفروشة على الارض محاطا بعدد من مساعديه وكان سكرتيره يكتب على ضوء مصباح يحمله احد الخدم. اما زيد فقد فر بعد هزيمة قبيلة حرب التي كان يتزعمها، على يد الاتراك، وتحرك فيصل لقطع الطريق الى ينبع، بينما تولى الكابتن بويل الانكليزي الدفاع عن المرفأ باستخدام السفن، خشية اي محاولة تركية لمهاجمته، وانهى فيصل رسائله الموجهة الى زعماء العشائر يطلب منهم المشاركة في هذه القوات مقابل قيامها بحمايتهم. وفي احدى الليالي الباردة، جلس يقرأ شكاوى القبائل حتى الرابعة فجرا، وكان يحل كل مشكلاتهم وينهي تذمراتهم لدرجة يقال انه كان يرضي الجميع، وبعد ذلك تناول بضع حبات من التمر وخلد الى النوم على السجادة.

وكان لورانس ايضا منخرطا بقوة في محاولات حل المشاكل بين القبائل وتوحيدها ضد الاتراك، وكانت نصائح غيرترود، المرشد له في هذه المهمة. لقد كان اشبه بمحكمة الاستئناف العليا لغرب الجزيرة العربية، وجعل حركة الاستقلال العربية قومية وحية بفضل قوة شخصيته. وحين جاءه شيوخ القبائل لتأكيد الولاء، طلب منهم ان يقسموا على القرآن بان 'ينتظروا حين ينتظر ويتقدموا حين يتقدم، والا يطيعوا امرا للاتراك وان يتعاملوا بلطف مع كل ناطق بالعربية وان يضعوا الاستقلال في مرتبة اعلى من الحياة والعائلة والمتاع'.

مس بيل' عاشقة الصحراء (14)



بيل تجد في فيصل 'رجل المستقبل والدفء وروح الدعابة'
فيصل يدعو لورنس لارتداء الملابس العربية

خيمة كانت تنصبها مس بيل خلال تنقلاتها في الصحراء

في أبريل 1916 التقى لورانس بغيرترود التي اعترف بفضلها عليه لفهمها طبيعة الحياة البدوية والعلاقات المتشابكة بين القبائل، وذلك اثناء مهمته الفاشلة لفك الحصار عن مدينة الكوت.
واخذت غيرترود تتابع مسار الاحداث من البصرة بالقدر الذي كانت تستطيع. في هذه الاثناء كان لورانس يعيش مع فيصل في خيمته في مرفأ ينبع، وكان شبه منقطع عن العالم باستثناء القليل من الرسائل لعائلته والتقارير وطلبات السلاح الى الحكومة

البريطانية. وتحت هذه الخيمة، حدثت للمرة الأولى ان دعا فيصل، لورانس لارتداء الملابس العربية، للحيلولة دون ان يعجز أي من رجال القبائل الثمانية الاف من التعرف اليه بلباس الخاكي، او يظن انه ضابط تركي، ولم يتردد لورانس في قبول الطلب.

عزل الاتراك

نزلت المساعدات البريطانية في ينبع حيث حطت اربع طائرات تحمل السلاح وتم تدريب مجموعات على استخدام السلاح والمتفجرات وخاصة لنسف خط الحجاز لسكة الحديد. وكانت الخطة تفضي بالتقدم نحو الساحل والسيطرة على حامية الوجه التركية على البحر الاحمر بين ينبع والعقبة. وفي الوقت ذاته، يتحرك علي وعبدالله وزيد الى الداخل، ويركزون قواتهم على خط سكة الحديد الى المدينة المنورة وتفجير الخط من اماكن عدة، وحينئذ يصبح الاتراك معزولين بالبحر واليابسة ومحرومين من اي امدادات ضرورية كي يتمكنوا من مهاجمة مكة.

وفي الثامن عشر من يناير 1917 تحرك فيصل على رأس قوة تتألف من عشرة الاف جندي في رحلة استمرت لثلاثة اسابيع الى بلدة 'الوجه' لخوض معركة مصيرية بالنسبة للثورة العربية ولم تقتصر العمليات على جنوب الحجاز، وكانت القبائل في غرب الجزيرة العربية موحدة للمرة الأولى، ضد عدو مشترك، وقد جعلت بداية المسيرة التي حملت الامير الى دمشق، كلا من فيصل ولورنس شخصية عالمية.

وحين وصل فيصل بجيشه المؤلف من حوالي 25 ألف رجل وثمانية الاف جمل منها خمسة الاف للفرسان وثلاثة الاف لحمل الخيام والاسلحة والذخائر، وجد ان الاسطول الملكي قد احكم سيطرته على 'الوجه'.

هجوم مفاجئ

وغادر لورنس الوجه برفقة شريف المدينة ناصر وعودة ابو تايه من شرق الحويطات وعبر الصحراء الى العقبة ووافق الامير فيصل على الرحلة، واخذ لورانس معه 22 ألف جنيه استرليني ووصل الفريق الى العقبة في شهر يوليو واحتل الحامية واخذوا ستمائة اسير تركي، ولم يكن احد يتوقع الهجوم على العقبة من الصحراء وكانت استعدادات الاتراك تتركز على صد هجوم من البحر. وقد اثبت هذا النصر للبريطانيين اهمية تحالف العرب معهم. فقد تحمل العرب وزر المعارك في الجنوب وسيطروا على البحر الاحمر، وهو ما اتاح للجيش المصري التقدم الى دمشق. وقد عين الجنرال اللنبي الذي تولى للتو، قيادة الجيش البريطاني، الامير فيصل قائدا للعمليات العربية شمال مدينة معان وفوضه بنقل المال والسلاح والذخائر عبر هذا الخط الى دمشق.

وقد عادل عمليات الابطاء والاخفاق للبريطانيين والاتراك، نجاح عمليات حرب العصابات ضد القوات التركية وضد القطارات التركية المحملة بالذخيرة والمال، ويصف جعفر باشا العسكري الذي يناصر فيصل في سوريا، احدى عمليات مهاجمة قطار تركي وكيف طارت الاوراق النقدية منه وهو يحترق لكن لم يعبأ اي من رجال القبائل بها في غمرة حثهم الخطى نحو دمشق.

قنبلة سايكس بيكو

وبينما قفل اللنبي باتجاه القدس، واستولى عليها بعد الانتصار على الاتراك في ديسمبر ،1917 كان فيصل في معسكر العقبة يعد الجيش للزحف شمالا نحو دمشق، في تلك اللحظة، كان لوقوع نسخة من اتفاقية سايكس - بيكو في يد المرابطين في معسكر العقبة، وقع القنبلة. واوصل البلاشفة النسخة عبر جمال باشا كي يكشف للعرب ماذا يخبئه لهم البريطانيون اذا انتصر الحلفاء في الحرب. وكان فيصل يعرف أن ثمة اتفاقية، لكنه لم يكن - حتى ذلك الحين - يعرف شيئا عن تفاصيل تلك الاتفاقية.

وشعر فيصل ولورانس بالإحباط وخيبة الامل، وساد شعور لأيام وكأن الثورة العربية قد انتهت، وكان لورانس ممزق بين مشاعره المتناقضة، واتصل فيصل بوالده على الفور، في مكة قائلا له انه وجيشه يرفضون مواصلة الحرب ضد الاتراك، لأن هدفهم هو استقلال الدول العربية، وانهم لا يقبلون استبدال الاحتلال التركي باحتلال اجنبي آخر. واتصل الشريف حسين بلندن ليتلقى تأكيدا من الحكومة البريطانية بأن هذه الانباء مبنية على اشاعات وانه ليس لدى الحكومة البريطانية نية سوى تحرير العرب، وكان ذلك كافيا بالنسبة للشريف حسين كي يطلب من ولده مواصلة الحرب 'او انني سأعتبرك خائنا'.

وهكذا، واصل الجيش العربي تقدمه وتنضم اليه القبائل الواحدة تلو الاخرى كلما تقدم، واحتلوا درعا ثم وصلوا الى قرية طافاس التي انتقم منها الاتراك في طريق انسحابهم من درعا فنكلوا بأهلها من النساء والاطفال واحرقوا منازلها.

مقاتل ورجل دولة

وحاصر الجيش العربي مدينة دمشق، وبعد وقت قصير، تخلى الاتراك عن المدينة فأخذ البريطانيون سبعين الف اسير، ودخل الجيش المدينة ورفع راية الشريف حسين على المباني الحكومية، وقوبل هذا الجيش بالاحتفالات والورود، ودخل الامير فيصل المدينة وقوبل بالترحيب الحار. والتقى فيصل الذي كان الزعيم المتوقع لسوريا، بالجنرال اللنبي، وكان بينهما اعجاب متبادل، وامتدح اللنبي فيصل قائلا انه يجمع بين صفات المقاتل ورجل الدولة، وانه يتمتع برؤية ثاقبة وحلو الحديث ووسامة المظهر. وفي اول كلمة له الى الشعب، اكد على وحدة العرب، وعلى المطالبة بالاستقلال وحكم القانون، وشرح سبب التحالف مع بريطانيا وفرنسا وايطاليا واميركا، وقال ان الهدف من ذلك هو انهاء جرائم الاتراك بحق العرب.

في مؤتمر باريس

وتوجه فيصل الى باريس لحضور مؤتمر باريس للسلام الذي عقد خلال الفترة من يناير الى يوليو ،1919 وكان من بين آلاف الحضور كل من غيرترود ولورانس وفيصل. وفي تلك الايام استنفد العالم طاقته ويستعد لمواجهة انتشار مرض انفلونزا الطيور الذي قضى على سبعة وعشرين مليون انسان، وهو ضعف رقم قتلى الحرب العالمية الاولى، وكان اول ضحايا هذا المرض السير سايكس الذي مات اثناء مؤتمر باريس.

وعانى لورانس وفيصل الامرين في باريس، فقد ابلغ الفرنسيون فيصل لدى وصوله الى قصر فرساي انه لا يتمتع بأي وضع رسمي يمكنه من حضور المؤتمر، وتدخل البريطانيون لإضافة اسمه ضمن الشخصيات الرسمية المدعوة للمؤتمر، ولكن كممثل للحجاز فحسب، وكانت المخابرات الفرنسية تفتح الرسائل الواصلة اليه او المرسلة اليه من الشرق الاوسط.

وتعرض لورانس الذي وصل الى مرسيليا وهو يرتدي اللباس العربي الكامل، للاهانات والمعاملة السيئة من الفرنسيين وقيل له انه سيحظى بالاستقبال فقط، باعتباره ضابطا بريطانيا، وانه غادر فرنسا باستياء بالغ، وانه حين توجه الى باريس لحضور جلسات المؤتمر، كان يرتدي الكوفية العربية ولباس الخاكي، ولكنهم لم يسمحوا له بالإقامة في فندق ماجستيك مع كبار المدعوين الى جانب اصدقائه وزملائه.

وقد اطلع فيصل في المؤتمر على نص اتفاقية سايكس - بيكو للمرة الاولى وشعر بأن الجميع قد خذلوه. وطالب لويد جورج باحترام التعهدات المعطاة للعرب بصرف النظر عن الاتفاقية، لكن وزير خارجية فرنسا بيكو، قال ان لا علاقة لفرنسا بالتعهدات البريطانية للعرب.

وفي السادس من فبراير، اتيحت الفرصة لفيصل لمخاطبة المجلس الأعلى، وتحدث باللغة العربية، بينما وقف لورنس الى جانبه يترجم خطبته. وطالب باستقلال الدول العربية، وذكر بريطانيا بتعهداتها للعرب بالاستقلال

في مراسلات الحسين - ماكماهون، وذكر الفرنسيين بروح تقرير المصير التي عززها الرئيس ويلسون ، ثم اخذ بالرد على الاسئلة باللغة الفرنسية، وحين سأل وزير خارجية فرنسا آنذاك ستيفن بيكون عن الانتداب الذي يفضله فيصل، سمع الاخير نصيحة لويد جورج وقال انه يفضل الانتداب الاميركي، لكنه اصيب ولورنس بالاحباط في اليوم التالي، حين امتنع الرئيس ويلسون عن الزام بلاده بالتدخل وانسحب من المفاوضات دفعة واحدة، لأن الشعب الاميركي فقد اهتمامه بالشرق الاوسط. وهكذا ضاعت القضية العربية.

وجها لوجه

لقد كانت غيرترود، بالطبع تتوق للقاء فيصل باعتباره بطل الثورة والرجل الذي سيكون - بشكل او بآخر - لاعبا رئيسيا في مستقبل الشرق الاوسط، فقد وصلت الى المؤتمر مبكرا لسماع كلمته وعرفها لورنس به، مما عمق تعاطفها مع القضية العربية، ورأت فيه نمط رجل الصحراء الذي طالما اعجبت به، بل وجدت فيه ايضا شيئا من الدفء وروح الدعابة على العكس من مظهره الجاد. وتحدث اليها لورنس عن ولع فيصل بالشعر وإجادته لعبة الشطرنج.

واعجبت به بشدة وكانت تأمل الا يحرمه الفرنسيون من فرصة ان يصبح ملكا على سوريا، وطلبت مقابلته، وبالفعل التقته في باريس وتحادثا لاكثر من ساعتين، وقالت له غيرترود انه لا توجد قوة على الارض يمكن ان تثني الفرنسيين عن فرض الانتداب على سوريا، فشعر بالذهول وابدى خيبة أمل عميقة، وفي حفل على العشاء التقت اللورد بلفور الذي ابدى اتفاقه معها بشأن الفرنسيين وموقفهم من سوريا، وحينها رجته ان يتحدث مع فيصل ليخلصه مما في ذهنه من اوهام، ويرسم طريقة بناء على رؤية واضحة للوضع، ففعل.

وعد بلفور

وفي الثاني من نوفمبر 1917 اصدر وزير الخارجية البريطاني في عهد رئيس الوزراء لويد جورج، جيمس بلفور وعده المشهور بمنح اليهود وطنا قوميا في فلسطين، وكتبت غيرترود وهي تفكر في اتفاقية سايكس - بيكو وكل المتاعب التي سببتها، كتبت رسالة الى السير غلبرت كليتون، الرئيس السابق للمكتب العربي في القاهرة تشكك في نوايا بلفور 'الصهيونية'.

وعلى الرغم من كونه يهوديا، لكن السير ادوين مونتاغو وزير الدولة لشؤون الهند، عارض الصيغة الاولى لوعد بلفور، التي كانت تنص عي جعل فلسطين كلها وطنا لليهود. واعتبر مونتاغو 'الصهيونية حركة سياسية شريرة ولا يمكن لأي وطني بريطاني ان يقبل بها'. وتساءل عن انعكاسات ذلك على حقوق اليهود في الدول الأخرى، وكان زعماء يهود آخرين في الغرب يعارضون إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين باعتبار ذلك لا يخدم مصالح اليهود. وبالإضافة إلى ذلك، شعر اليهود الذين يعيشون في فلسطين بالخطر الذي قد يلحق بهم نتيجة لهذه التحركات الصهيونية، وقرأ مونتناغو على مجلس الوزراء البريطاني رسالة قوية الحجة من غيرترود، تلك الرسالة التي كان لها الأثر الأكبر في إعادة صياغة وثيقة وعد بلفور من تخصيص 'كامل فلسطين لإقامة الدولة اليهودية' إلى 'إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين'. وكانت قد شعرت بغضب شديد من محاولات الصهاينة وسياسيين غربين في مؤتمر باريس للحديث عن فلسطين وكأنها أرض بلا شعب، كما رأت ان من غير الممكن للعرب واليهود أن يعيشا معا بسلام، وكتبت لكلينتون في شهر يناير 1918 تقول إن 'اقتراح إعطاء فلسطين لليهود ليس ممكن التحقيق ولا أريد له شخصيا أن ينفذ، وقد قلت ذلك في كل مناسبة، وان القيام بذلك سيكون على حساب أغلبية السكان العرب'.

ولم تكن تلك المرة الأولى التي سينتهي فيها الحلم الصهيوني بإقامة وطن قومي في فلسطين، أي اعتبار السكان الذين يعيشون على تلك الأرض، لقد تبنى المؤتمر الصهيوني الأول عام 1897 خطة لشراء أوغندا من أجل إقامة الدولة اليهودية. والآن، وبعد ثلاثين عاما مازال السؤال مطروحا حول حقوق السكان الأصليين في فلسطين؟

لقد كان يعيش فيها خمسمائة ألف عربي، أي أربعة أخماس إجمالي السكان، وماذا عن الحمايةالتي نص عليها وعد بلفور لهم؟

عند بدء الحرب وحين كان بلفور قائدا للبحرية ولويد جورج وزيرا للتسليح قدم وايزمان لهما خدمة لا تعوض، ففي وقت كانت فيه بريطانيا تعاني من نقص حاد في المتفجرات ابتكر طريقة لتصنيع الاستون الضروري لعمل المتفجرات وقدمها للحكومة من دون مقابل طوال سنوات الحرب، ولم يطلب شيئا سوى تأييد بريطانيا للقضية اليهودية، وكان وعدا لا ينسى.

وبالإضافة إلى ذلك، قاتلت الرابطة اليهودية ومتطوعون يهود إلى جانب الجنرال اللنبي في تقدمه لاحتلال دمشق، وحين أقام قاعدته هناك، أصدر بياناته باللغتين العبرية والعربية. وحين ألقى خطابه في مؤتمر باريس، عبر وايزمان عن تأييده فرض الانتداب البريطاني على فلسطين، وحين التقى الأمير فيصل في المؤتمر اكتشف الرجلان الموقف المشترك الذي يجمعهما، وهو ان أيا منهما لا يريد الانتداب الفرنسي، وقد وافق فيصل الذي كانت لديه مشاعر سلبية تجاه الفلسطينيين ويعتبرهم من 'أطراف' العرب، وكان مشغولا بمشكلاته الخاصة، وافق وايزمان على نحو غامض، ان في فلسطين 'متسعا من الأرض'، وتنبأ فيصل بمستقبل مفيد للفلسطينيين في شراكتهم مع المهاجرين اليهود الذين سيجلبون معهم التعليم الغربي والخبرات، وفي الثالث من يناير ،1919 وقع فيصل ووايزمان اتفاقا لتشجيع الهجرة في مقابل تأييد الصهاينة لدولة عربية مستقلة.

مس بيل' عاشقة الصحراء (15)



تدخلت بيل فتعدل وعد بلفور:فلسطين لليهود' إلى 'دولة يهودية في فلسطين

ابن سعود

بعد مؤتمر باريس، ارسلت الولايات المتحدة لجنة الى المنطقة لبحث مستقبل فلسطين، وجس نبض الرأي العام في سوريا، واكتشف الرجلان اللذان يترأسان اللجنة، وكما ابلغتهما غيرترود، ان ثمة معارضة شديدة للبرنامج الصهيوني، من جانب الفلسطينيين العرب، واوصت اللجنة باستبعاد فكرة الدولة اليهودية.

لم يعر احد اهتماما لنتائج اللجنة، ولم تكن ثمة فرصة لقراءة توصياتها، كما انها لم تنشر ابدا، ومن سوء الطالع انه في الوقت الذي فرض وايزمان حضوره على مؤتمر باريس، غاب عنه الفلسطينيون، وبدلا من ذلك، نظموا المظاهرات في القدس ضد اقتراح اقامة مستوطنة يهودية في فلسطين، وارسلوا إلى بلفور سيلا من الرسائل والالتماسات، والتي دمرها كلها، سكرتيره الخاص قبل ان يتمكن من قراءتها، والحقيقة ان احدا لم يكن راغبا في اجهاد نفسه بهذه المشكلة، ولذلك تم تسليم الملف بأكمله الى المندوب السامي في فلسطين هربرت صموئيل، وتحدثت غيرترود في حفل تنصيب صموئيل عن الشرخ القائم بين اليهود والعرب وعن الاساليب الصهيونية التي تعوزها اللياقة في سعيهم للسيطرة على فلسطين، ولسخط العرب على الصلاحيات الاقتصادية والمالية الممنوحة للجنة الصهيونية بزعامة وايزمان والتي عينتها بريطانيا وجعلت لها مقرا في القدس لتمثيل القضايا اليهودية امام السلطات البريطانية.

إحباط

غادر فيصل فرنسا في شهر ابريل ،1919 وهو في حالة احباط، وزار بابا الفاتيكان في روما قبل ان يعود الى سوريا لشن حرب عصابات على طول الخط الساحلي، وفي شهر سبتمبر، بلور لويد جورج وكليمنصو اتفاقا مؤقتا يتم بموجبه استبدال القوات البريطانية في سوريا بحاميات فرنسية، وظلت القوات العربية في المنطقة الشرقية تحت الاشراف الفرنسي، ودعت الحكومة البريطانية فيصل لمناقشة الوضع الى لندن، وعومل فيصل معاملة سيئة مرة اخرى في مرسيليا واجبر على عدم دخول باريس، على العكس من الاستقبال اللائق الذي حظي به من البريطانيين، وابلغ بالاتفاق الاخير مع فرنسا، لكنهم طمأنوه بأن الاتفاق مؤقت.

ضد فرساي

وعاد الى سوريا ليجد ان والده الشريف حسين قد رفض الاعتراف بالمفاوضات التي اجراها ولده، ورفض الاعتراف او المصادقة على معاهدة فرساي، ولكن حين وصل فيصل الى دمشق استقبل بمظاهرات شارك فيها اكثر من عشرة آلاف شخص احتجاجا على الانتداب الفرنسي. وعقد مؤتمر عربي في شهر مارس التالي للمطالبة بالاستقلال العربي الكامل في سوريا، وفي بلاد ما بين النهرين، كانت القبائل العربية تشن حربا ضد الانكليز.

عرش سوريا

**وقد طلب القوميون العرب من فيصل الذي وجد نفسه محاصرا بين اولويات الغرب والمتطرفين في سوريا، القبول بعرش سوريا، واخذ بعض الوقت للتفكير في اتخاذ القرار ثم اتصل باللورد اللنبي في القاهرة وطلب نصيحته، وفكر في انه اذا قبل بالعرش فقد يمنع ثورة، واذا رفضه فقد يشعلها، وقد اخذ الجواب بعض الوقت ايضا، وفي النهاية جاء غامضا ومراوغا، ثم انتخب ملكا على العراق، ولم تعترف به لا بريطانيا ولا فرنسا.
وفي ابريل عام ،1920 واثناء مؤتمر سان ريمو، تم وضع سوريا رسميا تحت الانتداب الفرنسي.
ودعي فيصل للحضور، لكنه شعر بالاعياء من التنقل حول العالم من كثرة استدعائه الى الدول الغربية، وعومل بالتجاهل والرفض، ووصلت سوريا الى درجة اصبح فيها الصراع حتميا.**

غورو في دمشق

وحالما وافق المؤتمر على الانتداب الفرنسي، انفجر العنف في دمشق. وكان فيصل في موقف بالغ الصعوبة. فقد اتهمه السوريون بأنه موال لفرنسا، والفرنسيون كانوا يتهمونه بموالاة الانكليز. ووصل اول مندوب سامي فرنسي هو الجنرال غورو الى دمشق. وكانت المفارقة انه الشخص ذاته الذي سبق ان قلد فيصل وساما فرنسيا رفيعا. لقد وجد امامه الثورة مندلعة. وكان عدد القوات الفرنسية المرابطة في سوريا قد وصل الان الى تسعين الف جندي، وسيطر الفرنسيون على كل الموانئ المهمة.

وطلب غورو من فيصل اعترافا غير مشروط بالانتداب وتبني الفرنسية لغة رسمية وتقليص عدد الجيش السوري والغاء التجنيد الالزامي. وعندما احتل الفرنسيون حلب عاقبوا كل العرب الذين تمردوا ضد الانتداب. وطلب فيصل مهلة لثمان واربعين ساعة لدراسة الموقف، ولكن قبل انتهاء المهلة، اصدر الفرنسيون مجموعة من الانذارات الاخيرة. وفي الثاني والعشرين من يوليو، اخذ عدد من رجال القبائل القانون بأيديهم وهاجموا مواقع فرنسية.

وفي اليوم التالي، تمكن الفرنسيون من هزيمتهم وتقدموا لاحتلال دمشق، وكتبت غيرترود تقول ان 'المقاومة العربية لم يكن يقودها فيصل، بل في الواقع، كانت تشكل تحديا لاوامره'. ولكن غورو اصدر اوامره لفيصل بمغادرة دمشق خلال اربع وعشرين ساعة. وهكذا، فشلت التجربة العربية الاولى لممارسة حق تقرير

المصير، من قبل الجيش الفرنسي. وغادر فيصل وشقيقه الاصغر زيد دمشق بهدوء الى درعا ومنها الى حيفا، تحت الحماية البريطانية. ومن ثم غادر الى القاهرة فأوروبا. وكان هناك رونالد ستورز لاستقباله في محطة القنطرة حيث وجد ملك سوريا السابق يجلس على امتعته بانتظار القطار. ووجده ستورز في حالة نفسية سيئة وقد 'تجمدت الدموع في مقلتيه'.

سخط وألم

وشعرت غيرترود بالالم والسخط العميق من التصرف البريطاني والفرنسي على حد سواء. وابلغها فيصل في مقابلة جمعتهما لاحقا انه كان يعول كثيرا على التحالف القوي بين الحكومة البريطانية والحجاز.

واصبحت مواقف كل من غيرترود وفيصل متقاربة، واصبح يتحدث معها بصراحة غير معهودة. ويقول: انني حين كنت في باريس عام 1919، كان والدي يحثني باستمرار على ان اطلب من الحلفاء الايفاء بتعهداتهم للعرب، بينما لم اكن اعلم شيئا من تلك التعهدات، فلم يسبق لي ان اطلعت على مراسلات مكماهون. ولكن في كل الاحوال، كان من المتعذر اجبار الحلفاء على الالتزام، فما القوة التي املكها؟ وما الثروة التي بحوزتي؟ فلم يكن بوسعي آنذاك سوى المحاججة والاقناع. وهذا ما فعلته، وواصلت فعله طوال الوقت.

وفي الوقت الذي عين فيه ملكا على سوريا، عين شقيقه عبدالله ملكا على العراق. ويقول انه كان يعلم ان الامر كله مثير للضحك، 'ولكني وافقت عليه ارضاء لشقيقي الاكبر مني سنا'. وقد ادركت غيرترود الان، الى اين تتجه السياسة الفرنسية في سوريا. فقد كسب الفرنسيون عداء كل اطياف الشعب السوري من مسلمين ومسيحيين ودروز وتوحدوا في المطالبة بجلاء القوات الفرنسية.

تجزئة لفرض الاستسلام

وفي محاولة لاجبار العرب على الاستسلام بالقوة العسكرية، قامت فرنسا بتجزئة سوريا. ففي صيف عام 1925، اطلق الدروز انتفاضة وطنية، واندلعت الثورة في دمشق مرة اخرى، فقامت القوات الفرنسية بقصف المدينة بشكل عشوائي، ودمرت الحي القديم من المدينة، واستمرت الفوضى في سوريا لسنوات.

وخلال الاشهر الاخيرة له في المنطقة قابل ا.ت. ويلسون، فيصل وتعرف عليه جيدا وكان يتابع برعب، الاحداث الجارية في دمشق ويشعر بالقلق من العنف في فلسطين والعراق، ولم يكن من المفاجئ ان تصف غيرترود تفكك الشرق الأوسط بانه شبيه بانهيار الامبراطورية الرومانية.

وحين أصبح الانتداب البريطاني رسميا على العراق، كان ا. ت ويلسون يستعد للمغادرة، كما بدأت الاستعدادات لاقامة المجلس الدستوري العربي في بغداد، لكن الجميع كان بانتظار عودة السير بيرسي كوكس من لندن، وقد فرحت غيرترود لعودة الرجل الذي وثقت به ويمكنها التعاون معه، ففكرت بوضع خطة لشكل من أشكال العملية الديموقراطية.

وفي هذا الوقت، أصيبت غيرترود بالالتهاب الشعبي مرة أخرى في وقت غير مناسب بالنسبة لها على الاطلاق، وغابت عن العمل لمدة أسبوع، ولكن منزلها الصيفي لم يخل من الزوار على مدار الساعة، واستقبلت ذات يوم وفدا من وجهاء مسلمي بغداد بمن فيهم طالب النقيب رئيس البلدية وابن احد أهم وجهاء المدينة من عائلة النقيب، ولم يستطع كوكس القيام بواجباته دونها، وطلب منها لقاء خاصا لمناقشة تعيين وزراء عرب ومستشارين بريطانيين.

حكومة انتقالية

وفي المكتب، قام صديقها فهد بن هذال الذي أصبح يناهز الثمانين من عمره الآن، بزيارتها، وابلغها انه تزوج

بامرأتين أخريين، واقامت له حفلا صغيرا في الحديقة. وفي هذه الاثناء، أعد كوكس قائمة من الممثلين والمرشحين العرب الموثوق بهم، وكان الخيار الأول هو رئيس بلدية بغداد عبدالرحمن الأفندي النقيب، الذي كان زعيما للطائفة السنية، وكان يتولى خدمة ضريح عبدالقادر الجيلاني، وكان يرتبط بعلاقة صداقة وثيقة مع غيرترود، وكان النقيب يعيش حياة أشبه بالاعتكاف الديني، وكانت غيرترود تشك في انه سيقبل العرض، وذهب كوكس لزيارته، ومن دواعي فرحة الجميع، انه قبل بالعرض لتشكيل حكومة انتقالية.

وخلال فترة قصيرة جدا، تمكن من تشكيلها من ثمانية عشر عضوا ودخلت السراي، وهي المبنى الذي انشأه الأتراك. وكان من أبرز اعضائها، قائد جيش فيصل في الثورة ونصيره في سوريا، جعفر العسكري ثم نوري السعيد الذي نال اعجاب غيرترود عندما تعرفت عليه، وكان هذان الرجلان من أول الشخصيات المؤيدة للاستقلال، وقد دعي جعفر البغدادي الذي يجيد ثماني لغات من قبل النقيب لتولي منصب وزير الدفاع وان يركز جهوده على بناء جيش وطني قوي يحل محل الجيش البريطاني.

وحين سمع بالاعدامات العلنية التي نفذها جمال باشا ضد اصدقائه من القوميين العرب في دمشق، غير تحالفاته ووقف الى جانب القوات العربية. وتقول غيرترود انها تتمنى لو كان هناك عدد كبير من الناس الذين يتصفون بما اتصف به من استقامة واعتدال. وكان جعفر قد اعترف لغيرترود، بانه وبعد تجارب فيصل في سوريا، كان مترددا في الانضمام الى الحكومة. ووعدته غيرترود بأن هدف الحكومة البريطانية في النهاية هو منح العراق الاستقلال الكامل، فأجابها ان الاستقلال ينتزع ولا يعطى.

وقد سبب الشيعة بعض المتاعب لأسباب كثيرة ليس فقط لأنهم كانوا ينظرون الى الحكومة بأنها ربيبة لبريطانيا، بل لأنها كانت تضم في اعضائها من الشيعة اقل من عدد السنة. واشارت غيرترود الى ان المحتجين كانوا في معظمهم من رعايا ايران وليس من حقهم دخول حكومة العراق. وبعد وقت قصير، قبلت شخصية شيعية في النجف، المشاركة في الحكومة كوزير للتعليم.

وكان من المقرر ان تدير الحكومة المؤقتة البلاد وفي الوقت ذاته تحضر لإجراء انتخابات عامة واعداد قانون للانتخاب يضمن النزاهة والتمثيل العادل. وكان عليها التغلب على مشكلة ان كبار الاقطاعيين في المجلس بذلوا اقصى جهودهم لحرمان القبائل من حق الانتخاب. وجاء حزقيل ساسون افندي رئيس الجالية اليهودية وداود يوسفاني للحديث في القضية. وتقول غيرترود 'اننا اتفقنا جميعا على ان زيادة عدد الاعضاء من القبائل على اهل المدينة سيكون امرا مأساويا، ولكني اكدت لهم ان اي حكومة وطنية لن تنجح اذا استثنت القبائل من عضويتها'.

فكرتها في البداية كانت ادخال 30 عضوا من القبائل بحيث يكون هناك ممثل عن كل قبيلة من القبائل العشرين الاكبر وعشرة اعضاء يمثلون القبائل الاصغر، وجاءها جعفر العسكري وساسون بخطة مختلفة، لقد اقترحا ممثلين اثنين من القبائل لكل اقليم من اقاليم العراق، ولكن يمكن لاي قبلي يرغب في التسجيل ان يصوت بطريقة عادية. وكانت سعيدة لان الحكومة وضعت خطة افضل من تلك التي تضمن عشرة اعضاء من القبائل في المجلس، وفي الاجتماع الاول لمجلس الدولة لاول حكومة عربية في بلاد ما بين النهرين منذ العهد العباسي ابدت سعادتها الغامرة.

تهدئة الأوضاع

وكانت المهمة الاولى للمجلس هي تهدئة الاوضاع في البلاد، فقد استمر العنف في مناطق طول ضفاف الفرات وفي الشمال، حيث كانت الطائرات البريطانية من طراز RAF تقصف رجال القبائل الذين واصلوا هجماتهم على الحاميات البريطانية النائية، وكان كوكس قد عقد العزم على ضمان السلام قبل ان يتخذ اي خطوة اخرى، ولذلك فقد استخدم القوة القصوى لاخماد الاضطرابات، وقد سهلت له القوات الاضافية هذه المهمة، وقد وعد البريطانيون باصدار عفو عام عن قادة التمرد الاخير، لكن كوكس لم يمنح العفو الا بعد استسلام القبائل، ولكن وغيرترود نصحته بأن يمضي قدما في العفو على الفور، فقد ارادت ان يبدو البريطانيون ممسكين بزمام

المبادرة من تلقاء انفسهم وليس اذعانا للضغوط العربية، وكتبت لشيرول تقول ان 'آراء السنة تميل لصالح الامير التركي.. هذا امر لا يعجبني، ولكني على استعداد للقبول به'.

لقد كان هدفها الثابت تحقيق السلم والاستقرار للعراق، حتى تزدهر حياة المواطن العادي، وكان عنف القبائل ضد البريطانيين دواء مريرا كان عليها ان تتجرعه، لقد كانت المسؤولية الرئيسية في ذلك تقع على عاتق الادارة السيئة السمعة ل ا.ت. ويلسون وعلى القوى الغربية، ومماطلتها في الايفاء بوعد منح البلاد حق تقرير المصير، لقد عبرت عن غضبها من الاثنين ولكن عليها الآن تحمل التبعات، لقد كانت تمقت العنف والقيام بعمليات القصف والحرق، لكنها اتفقت في الوقت نفسه مع كوكس على انه من المتعذر على الحكومة الوليدة التعايش مع التمرد المتنامي، وايدته، على مضض، في اتخاذ اجراءات قاسية من اجل احلال السلم، وربما يكون استعدادها على ما يبدو للقبول بأمير تركي اذا كانت تلك الارادة الديموقراطية لعراق المستقبل غير مفاجئ في ضوء الاشارات الساخرة التي وردت برسالة بعثت بها لهاردينغ في لحظة غضب.

وعلى اي حال، فان الديموقراطية تعني القبول بالرغبة التي يعبر عنها شعب ما، من دون تردد، وفي رسالة اخرى لهيو في الثامن عشر من ديسمبر 1920 كتبت تقول: 'قلت ان الامر كله منوط بهم ولا يعنينا من يختارون اميرا، واي شكل من الحكومة يقيمون شريطة ان نتأكد ان الاختيار تم بطريقة حرة ونزيهة، وبعيدا عن الضغوط والتخويف'. وربما لم تكن غيرترود صادقة كثيرا في ذلك، لانها كانت تعرف تماما الملك الذي كانت تريد له ان يتوج على عرش العراق، فبعد اسبوع واحد فقط، كتبت لوالدها تقول: 'اشعر ان هناك حلا عمليا واحدا، وهوا ختيار احد ابناء الشريف حسين، وتحديدا فيصل.. وارى انه الخيار الاول'.

مس بيل' عاشقة الصحراء (16)

بيل ترد اتهامات لورنس عن إدارتها 'الأكثر دموية والأقل كفاءة'
تشرشل: اختيار فيصل ملكا أقل الحلول تكلفة



مس بيل مع عدد من الزملاء والوزراء العرب في بغداد عام 1924

اصبح لدى غيرترود حلفاء مهمون. فهناك تشرشل وزير المستعمرات الجديد الذي اختار لورنس مستشارا له للشؤون العربية. وهذا مثله مثل غيرترود هزته خيانة الفرنسيين لفيصل وكان يرغب في تهدئة الشعور بالذنب لديه والمسؤولية عما حدث في سوريا.

كما كان يرى مثل غيرترود ان فيصل يعتبر الحل الافضل بالنسبة للنظام الملكي في العراق. غير انه كان لا بد من معرفة رأي الفرنسيين اولا. وكانت النتيجة وفق ما كان لورنس سيبلغ بها تشرشل، انه لا بد من وضع شرط يقول ان على فيصل التخلي عن جميع المطالبات بسوريا وجميع انواع الدعم المقدم الى الوطنيين السوريين. ووافق فيصل وكان على استعداد للتخلي عن مطالب والده في فلسطين مقابل حصوله هو على عرش العراق وإعطاء منطقة شرق الأردن التي انشقت حديثا الى شقيقه عبدالله.

بيد ان تشرشل كانت لديه امور ادارية اكثر الحاحا وهي تخفيض الفاتورة التي تبلغ 37 مليون جنيه استرليني التي يسددها دافع الضرائب مقابل السيطرة العسكرية على الشرق الاوسط، والتكلفة الباهظة لفرض السلام والقانون في العراق. ولتحقيق ذلك استدعى المسؤولين البريطانيين في العراق للقائه في مؤتمر يعقد في القاهرة. بدأ هذا المؤتمر الذي استمر لمدة عشرة ايام في 12 مارس 1921.

بيل ولورنس مجددا

استقبل لورنس الوفد العراقي في محطة القاهرة، وبما ان غيرترود كانت قد التقته آخر مرة في مؤتمر السلام

الا انه قد تحول الى شخصية مشهورة في جميع انحاء العالم.وأصبح لأول مرة اكثر شهرة منها وان كان هذا الامر لا يهمها.

جلست معه في غرفتها في فندق سميراميس، وبدأت حديثها معه حول بعض التعليقات التي صدرت عنه للصحافة بعضها ينتقد والبعض الآخر يطري عمل الادارة المدنية في بغداد. ففي الوقت الذي كان يبذل فيه كوكس قصارى جهده للقضاء على التمرد، كتب لورنس مقالا في صنداي تايمز يقول 'لقد تمت قيادة المواطنين الانكليز الى مصيدة في بلاد الرافدين يصعب عليهم الافلات منها بشرف وكرامة. فالامور باتت اسوأ كثيرا مما تم ابلاغنا به وادارتنا اصبحت اكثر دموية واقل كفاءة مما يعرف العامة'.

**وقد واجهته غيرترود بهذا الامر، وباتهاماته القائلة ان اللغة الانكليزية فرضت قسرا في العراق. وقالت له ان تلك مجرد اكاذيب وانه يعرف هذا الامر. ولكنهما مازالا صديقين وقد أصبحا الآن من بين الأشخاص ذوي الأهمية والنفوذ في الشرق الاوسط، كما كان الاثنان عازمين على رؤية فيصل وقد تولى عرش العراق.
وعندما غادر لورنس الغرفة، زارت غيرترود تشرشل زيارة قصيرة وكانت معه زوجته كلمنتين في جناحهما وفي اليوم التالي شرعا في العمل.**

أبلغ كوكس الوزير تشرشل ان المجلس المؤقت للدولة الذي كان يرفع تقاريره الى البريطانيين سيستبدل قريبا بهيئة جديدة ربما بحاكم عربي. وقالت له غيرترود ان هناك عددا من المرشحين من بينهم عبدالرحمن النقيب وهو كبير في السن ومن المؤكد ان يرفض، وأمير تركي، وشيخ المحمرة وايضا هناك مرشحان قويان هما فيصل وطالب النقيب.

وطالب ابن نقيب البصرة كان ذا شخصية طاغية ويحظى بشعبية محلية ويتمتع بحذق سياسي. وقد وصفته غيرترود ذات مرة بأنه متعجرف. وكان حينها يتولى منصب وزير الداخلية وقد غضب كثيرا لعدم اشراكه في الوفد الذي ذهب الى القاهرة. وكان قد سجن في الهند واطلق سراحه بعد تدخل ويلسون والإدارة البريطانية في بغداد. وهو فوق كل ذلك ينتمي الى اسرة عراقية مهمة، ووالده زعيم طائفة ذات نفوذ في جنوب العراق، وكان قد تعاون مع البريطانيين اخيرا في القضاء على التمرد في بغداد والبصرة.

وقد حاول اغواء غيرترود في الليلة التي سبقت سفرها الى القاهرة كما وصفت ذلك في فترة لاحقة: 'بين كؤوس الويسكي ظل يهمس في أذني مرارا بصوت خافت قائلا انه كان يعتبرني دائما كأخت له، كما كان دائما يتبع نصائحي والآن يعتبرني مساندته الوحيدة التي يعتمد عليها. وكنت أشعر بقوة ان طموحاته لن تتحقق البتة كما يجب الا تتحقق ولن تنفعه همهماته وتعبيراته التي لا طعم لها حول الصداقة'.

واخيرا جاءت الأصوات لمصلحة فيصل. وبعث تشرشل ببرقية الى الوطن للتأكيد على نقطة مهمة بالنسبة له وهي: ان فيصل ابن الشريف يوفر املا للوصول الى افضل الحلول واقلها تكلفة.

بدأ عراق غيرترود يأخذ شكلا وشرعت اللجنة التي كانت تضمها وكوكس ولورنس والوزراء العراقيين في تحديد التوقيت والجغرافيا وبصفته حاكما سنيا لبلد ذي اغلبية شيعية، فإن عودة نسب الامير الى الرسول صلى الله عليه وسلم سيشكل ورقة رابحة، وانه سيدعى فورا الى بغداد قبل بداية اختيار الحاكم. وكان في حاجة الى الذهاب الى مكة اولا حيث يتم اعلان ترشيحه من هناك، وسيزداد الدعم له كلما اتجه شرقا، وأرسل تشرشل برقية الى الوطن تقول ان 'كوكس والآنسة بيل متفقان انه اذا ما تم اتباع هذه الاجراءات فإن ظهور فيصل في العراق سيقود الى اجماع في تبنيه'.

فلسطين

القضية الكبرى الثانية التي طرحت للنقاش وفق ما ترى غيرترود كانت فلسطين. فقد واجه تشرشل الكثير من القضايا المتعارضة وكان عليه ان يحدد مع الفرنسيين حدودا مقبولة فيما بين فلسطين وسوريا واخرى في

الجنوب بين فلسطين ومصر. وكان عليه الوفاء بالوعد الخاص باقامة وطن لليهود والحفاظ في الوقت ذاته على الوعد المقدم الى نصف مليون عربي يقيمون في فلسطين بانهم سيتمكنون من تقرير مصيرهم، وبالاضافة الى ذلك فإنه مهما كان نوع الحكومة التي سيقيمها في فلسطين لا بد ان تكلف اقل من ستة ملايين جنيه استرليني التي تقدم كل عام. ومع تقدم مسير المؤتمر، اعتقد انه قد تم التوصل الى حل. ففي شرق نهر الاردن ستتم اقامة دولة عربية يطلق عليها في نهاية المطاف اسم شرق الاردن وستكون لها حكومة عربية وسيدعى عبدالله ليكون حاكما لها. اما في غرب نهر الاردن فسيسمح لليهود بالاستيطان في وسط العرب ولكن الانكليز سيظلون مسيطرين على الوضع بموجب الانتداب، وبالاضافة الى ذلك، فانه ربما كان لورنس من اثر فيه لتمديد صدور الانتداب الى الجنوب عند العقبة، ودق اسفين بين ابن سعود والبريطانيين في مصر.

كما وجه هيربرت صامويل المفوض الأعلى في فلسطين على اقتصار سلطاته ومسؤولياته على الاراضي الواقعة غرب نهر الاردن، حيث يستوطن اليهود، واعطائه قوة يهودية للدفاع عن المستوطنات، ورأت غيرترود ان ذلك يشكل وصفة لحدوث كارثة، واتفقت مع تعليقات السير ويند هام ديدز الصهيوني المثالي الذي لم يستطع اخفاء انزعاجه تجاه القرارات التي يجري اتخاذها فيما يتعلق بفلسطين، فقد سمع ديدز في حديث خاص وهو يقول بانفعال 'هل لدينا سياسة؟ هل تعرف حكومتنا الى اين تتجه؟ فانت اذا ما سألت تشرشل رأيه حول وضع هذه الدول العربية بعد مضي عشرين عاما، فانه سيعطيك ردا غامضا، فهو لا يعرف ولا يفكر في ذلك، كما لا يوجد تنسيق فيما يتعلق بالامور التي نقوم بها'.

معارضة للصهيونية

وكانت غيرترود صريحة في معارضتها للصهيونية معارضة واضحة، فقد كتبت الى دومنول تقول ان 'الفرنسيين في سوريا والصهاينة في فلسطين يشكلان عقبة كبرى امام التعامل النزيه مع العرب، وانه فقط في العراق يمكن اتباع سياسة نزيهة، والمأزق في فلسطين يختلف بصورة كبيرة عن ذلك الذي في سوريا، وهنالك مخرج واضح للغاية لهذا الامر الا وهو التخلي عن السياسة الصهيونية، وقد كانت محقة في تنبؤاتها، ففي وقت مبكر يعود الى يوليو عام 1922 رفض العرب الاعتراف بوعد بلفور، كما رفضوا الانتداب الذي منحته هيئة الامم لبريطانيا.

وقبل القيام بأي ترتيبات عامة فيما يتعلق بفيصل كانت هنالك فترة تأجيل تمكن تشرشل من استشارة مجلس الوزراء والحصول على موافقة حكومة جلالة الملك على ترشيح فيصل، وكانت فترة الانتظار بمنزلة عطلة قصيرة للبريطانيين في بغداد الذين كان يسود اوساطهم مزاجا من المرح.

علم مؤقت للزينة

بعد مرور ثلاثة اشهر من انتهاء مؤتمر القاهرة، انتهت العطلة وبدأت الاحداث تجري بوتيرة سريعة، فقد انطلق فيصل من مكة باتجاه العراق وكان يتوقع وصوله لبغداد في نهاية شهر يونيو، وقد تمت استشارة غيرترود حول تصميم علم مؤقت للعراق لتزيين الشوارع عند وصوله.

وفي القاهرة تساءل تشرشل عما إذا كانت الادارة قادرة على الحصول على تصويت لمصلحة فيصل 'هل تستطيعون التأكد من اختياره محليا؟' واضاف ان الاساليب السياسية الغربية 'ليست بالضرورة قابلة للتطبيق في الشرق ويجب صياغة اساس للانتخابات'. وكان ذلك اكثر من توصية بل امر. فعدم قبول فيصل سيشكل كارثة وسيقود الى طرح القضية العربية مجددا، وسيتبع كوكس توجيهاته حرفيا، ولم يكن هنالك شك ان فيصل يمثل افضل امل للاستقرار في العراق وكان على كوكس وغيرترود العمل على وصوله الى السلطة على انه خيار البلاد. وان يرى انه قد تم انتخابه باستقلال عن رغبة البريطانيين. وقد علقت غيرترود على ذلك بقولها ' انني لا اشكك البتة في صحة سياساتنا، ولكننا لا نستطيع الاستمرار في السيطرة البريطانية المباشرة، وانه امر مضحك ان تقول للناس المرة بعد الاخرى ان كانوا يرغبون في ذلك ام لا ان عليهم قبول حكومة عربية وليست بريطانية'.

تحريض بالعصيان

بعد العودة من القاهرة وجدت غيرترود وكوكس ان طالب النقيب كان يقوم بحملات نشطة لمصلحة اختياره. ففي حفل عشاء اقامه لتكريم مراسل صحيفة 'ديلي تلغراف' صرح بأن هناك مسؤولين بريطانيين منحازين ويمارسون ان كان عليه تقديم التماس للملك جورج لإزاحة هؤلاء المسؤولين. وأضاف مهددا انه اذا بذلت اية محاولة للتأثير على الانتخابات فإن 'هناك امير ربيعه ولديه ثلاثين ألف بندقية وكنا نعرف السبب وراء ذلك' وغيرترود التي كانت حاضرة حفل العشاء علقت تقول 'لقد كان ذلك تحريض بالعصيان يرقى الى اعلان الجهاد'.

كما سمعت غيرترود ايضا ان طالب كان يجمع حوله قتلة مأجورين. وقد ابلغت كوكس فورا بما سمعته. وكانت تشارك كوكس الخوف من اغتيال فيصل على يد هؤلاء القتلة المأجورين. وعزم كوكس على اتخاذ قرار حاسم لم يبلغ به غيرترود مسبقا.

فقد تم فورا وبعد حفل شاي اقامته في اليوم التالي الليدي كوكس، اعتقال طالب احد ضيوف الحفل. وأبلغ كوكس تشرشل بتلك الخطوة. 'لقد اعتقل هذا المساء وسينقل عبر النهر الى الفاو. ولا أتوقع حدوث اي مشكلات لأن الاغلبية العظمى من الناس شعروا بالارتياح. وآمل ان تساندني في خطوتي والتصريح لي بإرساله الى سيلان'. ورد تشرشل بأن تصريحات طالب تحريضية وان الاعتقال كان خطوة مناسبة. وبالرغم من انه لم تتم استشارة غيرترود حول تلك الخطوة غير العادية التي اتخذها كوكس، وكذلك بالرغم من ازاحة مرشح منافس في عشية الانتخابات كان يناقض كل المبادئ الديموقراطية، الا انها شعرت بارتياح كبير وقد بررت ذلك بأن تهديدات طالب تجعله غير مؤهل للمشاركة في العملية الديموقراطية. وقد كانت هنالك شكوى وحيدة قدمت للبريطانيين حول ابعاد طالب قدمها جاك فيلبي المسؤول السياسي في مكتب كوكس الذي كان مستشارا لطالب عندما كان وزيرا للداخلية. وكان فيلبي يثير استغراب غيرترود وكوكس بمدى اعجابه بطالب.

وعادت غيرترود لمهامها لاستقبال فيصل وقد اسعدها انه لا النقيب ولا البريطانيين اعدوا امر استقبال الامير بصروة مناسبة وتنصيبه بالطريقة اللائقة. ولسوء الحظ كانت اللجنة التي اختيرت للاعداد لاستقباله بدرت منها العديد من الامور المثيرة للجدل في ان افرادها اوشكوا على الشجار وتبادل اللكمات. وحضرت غيرترود الاجتماع الاول ولكنها شعرت بالملل وتركت اللجنة تواصل المجادلات.

احتفال من التبرعات

واستدعت غيرترود مسؤولين في ادارة السكك الحديدية وطلبت تزيين قطار خاص لنقل فيصل من البصرة. والغرف الوحيدة المناسبة للأمير ومرافقيه كانت مكاتب حكومية قديمة، فالسراي او القصر كان في حاجة الى اصلاحات وصيانة. واتصلت بإدارة الاشغال العامة وحددت لهم جدولا زمنيا وجمعت التبرعات من الشخصيات المرموقة في بغداد لشراء السجاد الفاخر والاثاث والتجهيزات. وطلبت من التجار توفير المزيد من الاثاث وادوات المطبخ وتناول الطعام. وتم ايضا اختيار خدم ذوي كفاءة. واخيار ستين من علية القوم لتحية واستقبال فيصل عند وصوله وجرى تدريب حرس شرف خاص لاستقباله.

ولحسن الحظ فإن فيصل كان خطيبا مفوها. وقد تمكن من كسب قلوب وعقول قطاع واسع من الناس في مناسبة نظمت لتكريمه في البصرة. وبعد ان قضيا الليل في القطار كان من المتوقع وصوله الى بغداد في صبيحة يوم 29. وقد زينت المدينة بأقواس النصر، والاعلام العربية وامتلأت الشوارع بالناس، وكان هنالك حشد كبير في محطة القطارات، وحرس للشرف وفرقة موسيقية.

وبعدها اعلن ان هنالك بعض التأخير في وصول القطارات وان الامير سوف يصل في سيارة، وأمر كوكس

الحاضرين بالعودة الى منازلهم وعليهم العودة الى المحطة في الساعة السادسة مساء، وبعث برسالة الى فيصل طلب فيها منه الانتظار في القطار حتى يتم حل المشكلة المتعلقة بخط السكك الحديدية، وبعدها يكمل استئناف رحلته بما يمكنه من الوصول الى بغداد في المساء، حيث تبرد حرارة الجو، وعادت الحشود في المساء ووصل فيصل اخيرا.

وقد سار الاستقبال حسب ما هو مخطط له، وسار فيصل عبر القاعة لمصافحة غيرترود وسمعت غيرترود ان زيارة البصرة لم تسر بصورة جيدة كما كان متوقعا. فالمسؤولون السياسيون ممن كانوا في استقباله لم يقدموا له الاحترام الواجب وكانوا مترفعين.

وكان فيلبي اكثرهم فظاظة، وكان قرار كوكس ارسال فيلبي لاستقبال فيصل قرارا غريبا، فهو كان يأمل بذلك ان يظهر ان البريطانيين كانوا نزيهين ولم يعاملوا فيصل على انه المرشح، وفي القطار اغضب فيلبي الامير فيصل بتركيزه على صفات ومزايا عدوه ابن سعود، فبعد وطأة كاتبه شكسبير اصبح فيلبي صلة الوصل فيما بين بريطانيا وابن سعود، وكان فيلبي يرى ان العراق لابد ان يصبح جمهورية، ووصل فيصل الى بغداد ولديه احساس بالغضب والارتباك فيما يتعلق بموقف الادارة البريطانية.

وكانت تلك بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير بالنسبة لكوكس، فقد استدعي فيلبي بعد ايام قليلة من ذلك الى مكتب كوكس، حيث تم انهاء خدماته، وقد شعرت غيرترود بالاسف ولكن كوكس كان محقا.
وفي اقرب وقت ممكن تركت غيرترود بطاقة زيارتها الشخصية في سكن فيصل في السراي، وتبعها فورا مساعده الذي ابلغها ان الامير يرغب في رؤيتها واقيمت بعدها مأدبة فخمة، ولأن الامير فيصل من محبي الشعر وقف الشاعر جميل الزهاوي والقى قصيدة رائعة بها الكثير من الاشارات الى فيصل كحاكم للعراق.
ولكن الامور لم تسر من دون عقبات، فعشائر الفرات الاوسط كانت تعد التماسات لمصلحة اقامة جمهورية، كما ان العديد من رجال الدين المجتهدين الشيعة كانوا يقفون ضد فيصل.

ووجدت غيرترود صعوبة في التعامل مع التوترات المتزايدة وكانت تعمل بجد، تتحدث مع هذا وتقنع ذاك وتكتب للآخر مقدمة الحجج من اجل قضيتها وكانت تعتقد ان بغداد قد تم كسبها لمصلحة فيصل، وتأمل ان تحذو بقية انحاء العراق حذوها. واستمرت حفلات الاستقبال والعشاء وبصفة خاصة تلك التي تقام في بيت النقيب، حيث استقبل الشيخ الطاعن في السن فيصل وتعانقا، وسارا يدا بيد باتجاه الضيوف الذين وقفوا لاستقبالهما. وجلست غيرترود على يمين فيصل.



وفي 11 يوليو اعلن مجلس الدولة بطلب من النقيب وبالاجماع فيصل ملكا على العراق، وبالرغم من شعور كوكس بالارتياح، لكنه كان يدرك انه يجب الاعداد لاستفتاء عام يجرى لتأييد فيصل وانه يمثل خيار المواطنين، وقد صاغ وغيرترود مسبقا السؤال الذي يطرح فيه: 'هل توافق على فيصل كملك وزعيم للعراق؟'.
وطبعا بطاقات الاقتراع التي ستوزع على عدد كبير من ممثلي العشائر ومن بينهم ثلاثمائة من الشخصيات المرموقة.
واصبحت غيرترود زائرة دائمة لشقق فيصل، وكان يتم ادخالها فورا عبر غرفة مستشاره البريطاني، وكان فيصل يمضي يومه في اجتماعات ولقاءات مع اناس من كل انحاء البلاد. وكان في المساء اما يقيم حفلات عشاء او يحضرها وكان عدد ضيوفه يصل الى الخمسين شخصا احيانا.

الملك فيصل: بيل لا تعرف الخوف واسمها سيظل محفورا في تاريخ العراق
المندوب السامي حمل اتفاقية الانتداب إلى منزل النقيب وأجبره على التوقيع عليها

لا أحد يعلم ما إذا كانت نهاية بيل طبيعية أم انتحارا

وجدت غيرترود، التي اصبحت في الثالثة والخمسين من عمرها، تغرق أكثر فأكثر في صحبة الملك، لقد كان فيصل ابن السادسة والثلاثين، الرفيق الأكثر سحرا ولطفا مع من يثق بهم، وكان يمارس تأثيرا مقنعا على كل من حوله، وكان وزير المشرق وفيصل يتمتعان بحس فكاهي كانا يستمتعان به في جلساتهما السرية لدرجة تجد مساعديهما كثيري الفضول لمعرفة سبب الضحكات التي كانوا يسمعونها تملأ المكان.

ومن جانبه، كان الملك يرى في غيرترود انسانة استثنائية وحليفة يمكن الاعتماد عليها وتتمتع بمعرفة واسعة وتاريخ شخصي حافل بالمغامرة يصعب عليه ـ كرجل عربي ـ تصديقه. وكانت حواراتها تشتعل نارا كلما لامست الوضع السياسي، وعلى الرغم من صعوبة الطقس وتأثيره على صحتها، فانها ظلت تحب التمشي على ضفاف دجلة في ساعات الصباح الاولى والسباحة في مياهه في المساء.

حين قابلتها الصحافية الاميركية مارغريت هاريسون من صحيفة نيويورك تايمز في عام 1923 في مكتبها ببغداد كتبت تقول انها دخلت الى غرفتها الصغيرة المواجهة للنهر فوجدت انها امام 'الغرفة الاكثر فوضى التي رأيتها على الاطلاق، فقد وجدت الكراسي والطاولات والارائك مغطاه بالوثائق والخرائط والمنشورات والأوراق باللغات العربية والانكليزية والفرنسية'.
تقاعد السير بيرس كوكس واستبدل به السيرهنري روبس وظلت غيرترود في بغداد لتقديم النصح الرسمي وغير الرسمي. وكانت هذه الفترة من حياة فيصل وغيرترود من اكثرها ارتياحا ومتعة لكليهما واصبحت بينهما علاقة صداقة وطيدة ومبنية على الثقة.

ولم يكشف عن مدى عمق علاقتهما الا بعد وفاة غيرترود، حيث اجرت مجلة بريطانية مغمورة اسمها EVERYBODYص S WEEKLY مقابلة مع الملك وسألته عن العلاقة التي كانت تربطه بها، فامتدحها فيصل بشدة وقال انها اسهمت شأنها شأن لورنس في اندلاع ثورة القبائل العربية ضد الاتراك، وان اسمها سيظل محفورا في تاريخ العرب. واضاف انها لم تكن تعرف الخوف او الخطر وكان آخر ما تعبأ به هو سلامتها الشخصية.

وكان الاتراك في وقت مبكر من الحرب قد اعلنوا عن مكافأة لمن يأتي برأس غيرترود لأنهم كشفوا عن المساعدات التكتيكية التي كانت تقدمها للعرب في الميدان وكانت لها فائدة كبيرة. لقد اعاد الملك فيصل، بعد تتويجه، ترتيب امور حياته. فقد انتقل من شقته في السراي الى قصر على تخوم بغداد. وكان له قصر آخر في منطقة الحارثية على شاطئ الفرات وامامه حديقة جميلة، واشترى مزرعة في مدينة خانقين على الحدود مع ايران. وحين تعلم قيادة الطائرات في وقت لاحق، كان ينتقل بين قصوره وممتلكاته جوا.

حد السيف

لقد كافحت غيرترود، ليس بأقل من فيصل، من اجل استقلال العرب وكانت هذه الرسالة التي حملتها من القاهرة الى البصرة الى بغداد، وكانت تعارض التهديدات البريطانية بالانسحاب من العراق، وتشعر بخيبة الامل من تنامي التمرد.

ومع حلول عام 1921، سارت الاحداث باتجاه ايجابي، فقد عاد كوكس، المفاوض الحكيم الذي يؤمن بالمبادئ ذاتها لغيرترود واصبح هناك ملك عربي متوج والنقيب، هذا الرجل البغدادي الذي يحظى بالاحترام، رئيسا للوزراء، واصبح حق تقرير المصير يلوح في الافق، لكن لندن كانت تصر على ضرورة قبول العراقيين

بالانتداب بشكل رسمي، والا فإن الانسحاب من العراق سيكون الرد. وكان فيصل يسير على حد السيف، فقد انفكت قبضته على سوريا بسبب فرض الانتداب الفرنسي عليها. وهو كان يدرك ان مصداقيته كزعيم للعرب تعتمد على ان يبدو رافضا للانتداب البريطاني.

وكانت فكرة كوكس ان تقبل لندن باتفاقية بدلا من الانتداب، وكان من المقبول بالنسبة لعصبة الامم ان تفي لندن بالتزاماتها تجاه هذه الدولة الناشئة. وكان يرضي العراق قيام علاقات متكافئة وحكم ذاتي دون تدخل بريطاني وتولي جيش وطني حماية البلاد.

وعند بدء المفاوضات بين الجانبين، طالب البريطانيون الملك بالالتزام بالانتداب كشرط لتوقيع الاتفاق، لكنه اصر على ان الاتفاقية يجب ان تكون منفصلة ورفض رئيس الوزراء الاعتراف بها ان لم تكن كذلك، وكانت لدى فيصل اجندة أوسع، فقد اعتقد ان رفض العراق الاعتراف بالانتداب سيدفع السوريين الى رفض الانتداب كذلك، وكان يريد ان يظهر للعالم قدرة المسلمين على حكم أنفسهم بأنفسهم.

وكانت غيرترود في تلك الأيام تتردد يوميا على القصر، لكنها أصبحت تجد ان من الصعب التعاطي مع الملك، الذي أخذ يحرض ضد الانتداب. وحين حاول البريطانيون اعتقال احد الشيوخ الذي اغتال ضابطا بريطانيا، اتهمهم بانهم اعداؤه، وقال للصحافة بأن الوجهاء العرب لا يتلقون الأوامر من الأجنبي، وفي كل مرة يتم التوصل الى اتفاق، كان الملك يجد فيه خطأ جديدا.

محاولة أخيرة

وقد ضاقت غيرترود بمثل هذا الوضع، وكذا كوكس وغيرهما، وكان فيصل يجازف بفقدان ولاء الشيوخ والوزراء المعتدلين الذين ايدوه، فقررت غيرترود بذل المحاولة الأخيرة مع فيصل، الذي كانت على ثقة باحترامه لها.

وقد قدم الانكليز الكثير من التنازلات حول شروط الاتفاقية، وبقيت مسألة الانتداب، فرفض تشرشل أي حل وسط بشأنه، وطالب كوكس وفيصل بالقدوم إلى لندن، حيث سيحدد لهما انذارا نهائيا. واقترح كوكس نشر الاتفاقية مع الملك واضافة ملحق يؤكد ان المسألة الخلافية الوحيدة المتبقية هي الانتداب.

وبينما كانت هي وكوكس في اجتماع مع الملك في القصر تقاطر أكثر من ثلاثة آلاف شخص الى القصر ضمن تظاهرة احتجاجية نظمها حزبان سياسان متطرفان. وكانت تلك بداية قيام المعارضين بحشد قواهم، وكان فيصل يرفض اتخاذ اي خطوات ضدهم ما لم يتم الغاء الانتداب، فاستقال مجلس الوزراء بأكمله، وظل النقيب في عزلة، بينما امتد التمرد المناهض للانتداب.

وشن كوكس حملة على المعارضين واعتقل سبعة من قادة التمرد في بغداد وفر كثيرون منهم بلباس نسائي واغلق لهم صحيفتين وحزبين سياسيين متطرفين. وحين زاره كوكس وغيرترود كان شعوره بالارتياح واضحا، وابدى اعجابه بتحركات كوكس وقال 'لقد كفيتموني الملامة'. وبعد ذلك، أخذ المندوي السامي الاتفاقية الى النقيب في منزله، ووضع قلما في يده وطلب منه التوقيع عليها، فطالب النقيب المرتبك، قراءة بعض نصوص الاتفاقية الانكليزية، باللغة العربية، كي يتأكد من تطابق النص باللغتين، ثم وقع. وكان ذلك في العاشر من اكتوبر 1922.

وبعد ثلاثة أيام، أعلن فيصل ان الاتفاقية تمثل استمرارا لعلاقة الصداقة التي تربطنا بالحليفة بريطانيا، ومهدت الاتفاقية السبيل امام العراق للانضمام إلى عصبة الأمم كدولة مستقلة، وابلغ فيصل غيرترود، انه بعد المشكلات التي وقعت في دمشق، فإنه كان يتخوف من جلب زوجته وابنائه معه الى العراق، والآن، اصبح الوضع اكثر استقرارا في العراق، منه في الحجاز، فقد اخذ عائلة شقيقه زيد الى العراق. لقد قاتل زيد مع فيصل في الثورة ثم ذهب الى الدراسة في بريطانيا في وقت لاحق من ذلك العام. ويأتي في الاهمية من بعد

زيد، الامير غازي ابن الملك فيصل ذي الاثنين عشر ربيعا، ولم يكن غازي يجيد قراءة أو كتابة اللغة العربية، واحتاج الى مدرسين خصوصيين، واصبح الملك في هذه الآونة يرتدي الملابس الاوروبية واراد من ابنه ان يفعل الشيء ذاته.

وكانت ثمة حاجة لتعيين مسؤولة مراسم في البلاط الملكي لمساعدة الملكة في تنفيذ المراسيم والبروتوكول الدبلوماسي، فاقترحت غيرترود على فيصل تعيين زوجة جودت بيك كبير مستشاري الملك للاضطلاع بهذه المهمة، وكانت المرأة من عائلة شركسية معروفة، وكانت متعلمة وتحظى باحترام شديد وتعيش في بغداد منذ زمن طويل. وكان الملك سعيدا بهذه النصيحة، وهنأت غيرترود نفسها على قدرتها على التفوق على حاجبة زوجة الملك السورية التي كانت تدفع بابنتها باستمرار لاقناع الملك على الزواج منها اما كزوجة ثانية او انها لم تكن تعرف ان الملك متزوج.

وبعد وصول الملكة الى بغداد، بدا ان فيصل سوف يستقبل ضيفا غير متوقع من العائلة، ضيف لن يكون موضع ترحيب كبير. انه والده الذي طرده ابن سعود من مكة التي ضمها الى مملكته، ولم تكن غيرترود مرتاحة لوجوده في بغداد وقالت انها تتمنى لو انه لا يستقر هناك. فهو مناهض لفيصل ومناهض للانكليز.

خطوة تصعيدية

لقد برزت المتاعب منذ ان اطلق الحسين على نفسه لقب خليفة المسلمين، وهو المنصب الذي الغاه مصطفى كمال اتاتورك. هذه الخطوة التصعيدية من جانب الحسين منحت ابن سعود المبرر لطرد الشريف حسين من مكة. فقد احتل ابن سعود حائل حيث اعتقلت غيرترود. وفي عام 1921 حيث تنصيب فيصل، اندلعت اعمال العنف، حين بدأت قوات ابن سعود في مهاجمة الحجاز وشرق الاردن الذي كان حينها تحت حكم عبدالله، وحتى حدود العراق، وقد لقي مائتين من رجال القبائل حتفهم في تلك الهجمات، واضطر سلاح الجو الملكي البريطاني للتدخل لحمايتهم.

لقد وجد فيصل وهو رجل النشاط والحركة، نفسه محاصرا بين القصر والمكتب ومحاطا بالكثير من المشكلات المعقدة واصبح يجد صعوبة في الوثوق بمن حوله وبدأ صبره ينفد. وقاوم المزيد من المحاولات لاجباره على التوصل الى حلول وسط مع الانكليز ومع وزرائه ومع الاكراد وآخرين واخذ يضيق ذرعا بتدخلات والده وطار الى شرق الاردن من اجل حل المشكلات التي تواجه العائلة وابلغ غيرترود في طريق عودته بأنه إذا لم يتخذ البريطانيون خطوات للتدخل في الحجاز، فسوف يضطر إلى مغادرة العراق من أجل القتال دفاعا عن عائلته، ونصحته بتوخي الحذر، لكن الملك لم يعد يأخذ بنصائحها، بل انه لم يعد يثق بها، وبالفعل، فقد بدأ شهر العسل بينهما إلى أفول.

وفقد الملك فيصل أعصابه اثناء جلسة لمجلس الوزراء بسبب الفشل في وقف الاجتياحات السعودية للحدود، وفجأة طالب خمسة من الوزراء بتقديم استقالاتهم، وسارع كوكس الى تهدئته. وكان قد بعث برسالة لابن سعود يطلب تفسيرا لتلك الاجتياحات، فرد ابن سعود بأن لا علم له بأي اعتداءات على قبائل فيصل.
وكانت غيرترود تخطط للعودة الى بريطانيا لقضاء العطلة ومقابلة والدها في طريق سفرها بالقرب من القدس. ثم عدلت عن رأيها بسبب حساسية الوضع وضيق الوقت، وقررت السفر لمقابلة والدها في 'زيزا' لعدة ايام فقط، فأبلغها انهما مدعوان على مائدة الامير عبدالله في معسكر يقيم فيه بالقرب من عمان، لكنه رفض الدعوة لان غيرترود كانت مرهقة، ثم اقنعته بانها بحالة جيدة وان بوسعها تلبية الدعوة. وكانت ترقب عبدالله طوال الوقت فأخذت عنه انطباعا سلبيا. وحين عادت الى بغداد، ذهبت لتناول كأس من الشادي مع الملك فيصل، وكتبت في مذكراتها ان قناعة كانت لديها في ذلك الوقت بان العراق هو البلد العربي الوحيد الذي كان يسير في الاتجاه الصحيح وان الفشل في العراق يعني نهاية الطموحات العربية، وقالت انها كانت محظوظة لانها تتعامل مع فيصل وليست مضطرة للتعامل مع عبدالله.

ضيف ثقيل

وحل الشريف حسين اخيرا ضيفا على الملك عبدالله في شرق الاردن. ومن هناك شن حملة ضد ابنه عبدالله لاذعانه للبريطانيين وللحكومة التي يقودها الصهاينة في القدس. وكان عبدالله الذي يتلقى 150 الف جنيه استرليني سنويا، بحاجة ايضا الى الدعم البريطاني لمحاربة ابن سعود. وقد ثار الخلاف بين الاب وابنه. وطرد الشريف حسين ثانية فأقام في يخته قبالة مدينة العقبة، لكن طلب منه المغادرة مرة اخرى، فانطلق من البحر الاحمر الى البحر المتوسط. وبدأت المآسي تنهال على العائلة الهاشمية.

وقد انقذ الموقف السير رونالد ستورز حين وجد ملاذا للشريف حسين في جزيرة قبرص، حيث كان ستورز حاكما لها. وعاش الحسين في المنفى هناك حتى وفاته. وفي هذه الاثناء، قبل ابن سعود عرش الحجاز 'نزولا عند رغبة الشعب'.

وعكفت لجنة من عصبة الامم لمدة سبع سنوات لحل نزاعات الحدود بين تركيا والعراق، وقررت اخيرا ان ولاية الموصل تتبع العراق وليس تركيا، وكان الجيش العراقي ضعيفا، آنذاك وتولت القوات البريطانية التصدي لتمرد القبائل وللاعتداءات التركية على الحدود.. وكانت مواقف تشرشل متذبذبة وفي عام 1921 أمر قواته بالانسحاب من الموصل. وفي مؤتمر القاهرة أمر بالسماح للأكراد بأن يحددوا مستقبلهم. ونفذ كوكس الأوامر وبعث بالجواب المتوقع الذي لم يكن جوابا على الإطلاق، فقد رفضت السليمانية المشاركة في هذه اللجنة، وكركوك كانت تريد الانضمام إلى الاستقلال الكردي، ووافق فيصل على منح الأكراد حكما إقليميا في الشمال ضمن السيادة العراقية، ووعد الأشوريين الذين طردوا من ديارهم بإعطائهم الأرض وحكما ذاتيا.

وكانت العلاقة تتوثق يوما بعد يوم بين مستشار الملك كينهان كورنواليس وغيرترود، فعرض عليها منصبا في الإدارة العراقية الجديدة هو رئيسة الاستخبارات في وزارة الداخلية، فابتسمت قائلة انها لا تستطيع أن تترك بيريس، كما ان من شأن ذلك أن يضع حدا لوضعها الخاص لدى الملك.

وكان الاثنان يشتركان في ولائهما وإخلاصهما، بل وحبهما للملك. وكثرت اللقاءات بينهما في المناسبات التي يقيمها القصر وفي حفلات نهاية الأسبوع وحفلات أخرى، وكان الملك يحب الألعاب مثل البريدج والسكة الحديدية والسباحة في النهر، وكانت غيرترود تذهب إلى السباحة مع الملك وتتندر على ضعف إجادته للسباحة، كما تفعل. وكانت تلجأ إلى شجر التين كي تغير ملابسها بعيدا عن الأعين. كما كانت تستمتع بأكل السمك مع الملك، على شاطئ النهر.

وفجأة غادرت زوجة كورنواليس إلى لندن، وفاتح كورنواليس غيرترود بأمور خلافاته مع زوجته. وذكرت في مراسلاتها مع شقيقتها انها تشعر بذلك الحب تجاه كورنواليس الذي ينشأ تجاه الأم أو الشقيقة إضافة إلى ذلك 'الحب الآخر'!

وكان كورنواليس يرى في غيرترود انها امرأة لا تضاهى وان هناك الكثير من الاهتمامات المشتركة بينهما، لكنه كان يصغرها بثلاثة عشر عاما، وهو لم يكن يبحث عن أم أو شقيقة. وكانت غيرترود ترى فيه واحدا من أروع الرجال الذين تعرفت عليهم في حياتها، وحين ذهب إلى إنكلترا طلبت من شقيقتها مولي أن تدعوه إلى العشاء.

حقبة جديدة

وقد بدأ الملك يجري الاستعدادات لانتخاب المجلس الدستوري للمصادقة على اتفاقية لوزان ولوضع قانون الانتخابات، في هذه الأثناء استقال النقيب وحل محله في رئاسة الحكومة عبدالمحسن بيك. وتزامن ذلك مع تولي المحافظين برئاسة بونار لو السلطة في بريطانيا الذي تعهد بانسحاب مبكر من العراق. واستدعي كوكس

مرة أخرى إلى لندن، لمراجعة الدور البريطاني في العراق، وعاد بملحق جديد للاتفاقية يتضمن انخراطا بريطانيا هناك لمدة أربع سنوات أخرى فقط، وقد أعطى ذلك، فيصل اكثر مما طلب، واصبح السؤال الآن، هل العراق قادر على الدفاع عن نفسه وعلى حكم نفسه بنفسه، خلال اربع سنوات؟

في نهاية ابريل ،1923 غادر كوكس اخيرا العراق، وحين اقام حفل الوداع في حديقة منزله، بدا الامر وكأنه نهاية حقبة وبداية حقبة جديدة، وهكذا كان ولم يفتقده احد بقدر غيرترود. وكان المندوب السامي الجديد السير هنري دوبس قد وصل في شهر ديسمبر الماضي ليتأقلم مع مهام عمله الجديد. وامسك دوبس بزمام الامور الامنية والشؤون الخارجية، واصبح بالامكان المضي قدما في اجراء الانتخابات، وقد قام الملك بجولات على طول البلاد وعرضها لحث الناس على المشاركة في الاقتراع.

وبينما كانت تخطط لاستقبال شقيقتها مولي وزوجها السير هربرت ريثموند في زيارة رسمية مقررة لهما الى بغداد، اصيبت بالاعياء الشديد، وارسل لها الملك طبيبه الخاص هاري سندرسون (الذي شخص حالتها بأنها التهاب الشعبة الهوائية) ووضعت الليدي دوبس سيارتها تحت تصرف غيرترود بعد ان تحسنت قليلا، كي تصطحب زوارها في جولات في مختلف انحاء بغداد، واصبح الاهل في لندن يخشون على صحتها بعد ان علموا بانباء توعكها.

وبعد وقت قصير، تفاقمت حالتها فقد ارتفعت درجة حرارتها وبدأت تشعر بالارهاق والانهيار الحقيقي، وذلك بالاضافة الى شعورها بالوحدة والاحباط والحزن. وحين عزمت على العودة الى انكلترا، غضب الملك وقال لها: 'لا تتحدثي عن العودة الى بلدك، فهذا هو بلدك، ويمكنك الذهاب لزيارة الأهل والعودة ثانية، وفعلا وصلت الى لندن يوم السابع عشر من يوليو، وتوعكت مرة أخرى فنصحها الطبيبان المعالجان بعدم العودة الى طقس العراق وكذا فعل الاصدقاء.

الشتاء الأخير

في احدى رسائلها، تحدثت عن الشتاء الاخير في العراق فهل كانت تقصد الشتاء الاخير لها في العراق ام شتاءها الاخير؟ ففي نهاية سبتمبر، غادرت غيرترود لندن ولوحت لمجموعة من الاصدقاء، وكتبت رسالة حب لكل من والديها.

وفي فبراير 1926، توفي الاخ غير الشقيق لغيرترود، هيوغو، نتيجة اصابته بالتيفوئيد، فحزنت عليه غيرترود حزنا شديدا، وجعلها غير قادرة على القيام بشيء، فتقاطر الناس لمواساتها والتخفيف من صدمتها، وعاودها المرض، وبالرغم من ذلك اصرت على حضور حفل للملك في مزرعته في خانقين بمناسبة اعياد الميلاد، فاشتد عليها المرض بسبب البرد القارس، فاستدعي لها طبيب من بغداد، فقرر نقلها الى المستشفى في بغداد.

وبدأت غيرترود تفكر في انشاء متحف العراق من اجل الحفاظ على تاريخ هذه البلاد، وبدأت تجمع القطع الاثرية الثمينة ذات الصلة بهذا البلد، من مختلف انحاء العالم، وقررت اقامة هذا المتحف في مكان منفصل عن وزارة الاشغال، وبالفعل، فقد افتتح الملك المتحف الجديد في شهر يونيو.

وفي الخامس والعشرين من يونيو 1926، اقام الملك حفل عشاء احتفالا بتوقيع اتفاقية لوزان، وعبر عن شكره العميق للحكومة البريطانية وممثليها لكل ما فعلوه من اجل العراق، وكانت غيرترود من ابرز حضور هذا الحفل. وفي الحادي عشر من يوليو، وبعد عودتها من رحلة السباحة الاعتيادية في المساء، شعرت بالاعياء من شدة الحرارة، وذهبت الى النوم، وطلبت من الخادمة ان توقظها في السادسة صباحا وألا يتم ازعاجها قبل ذلك، وخلدت غيرترود الى النوم، والى جانبها علبة الادوية، ولم يعرف على وجه اليقين ما اذا كانت قد اقدمت على الانتحار او ما اذا كانت زجاجة الدواء فارغة ام ملأى، وكل ما هو معروف انها ارسلت في اليوم السابق ملاحظة الى كين كورنواليس ما اذا كان بوسعه ان يعتني بكلبها، 'اذا حدث لي مكروه'!.

وكانت غيرترود قد ابلغت دومنول قبل عدة سنوات انها لم تعد تخشى الموت، لقد خلدت الى النوم ولكنها لم تستيقظ هذه المرة ابدا، واشار الطبيب الذي حرر شهادة الوفاة (الدكتور دنلوب) الى أنها توفيت بسبب تناول حبوب مهدئة، وان الوفاة حدثت في الساعات الاولى من الثاني عشر من يوليو، اي قبل يومين فقط من عيد ميلادها الثامن والخمسين.

وكان الملك فيصل خارج العراق وقت وفاة غيرترود، وكان ينوب عنه الامير علي، فأمر بتنظيم جنازة عسكرية لها، ولف جثمانها بالعلم العراقي ونقل في سيارة اسعاف ودفنت في المقبرة البريطانية، وشارك في القاء نظرة الوداع الاخيرة عليها اركان العائلة الملكية وممثلو الحكومة البريطانية واخرون.

(انتهى)
القبس الكويتية